البَابُ السَابِعُ

الإسماعيلية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الإسماعيلية الأولى

كانت الإسماعيلية هى المنحنى الأكبر الخطير للشيعة الإمامية ، وإحدى الضربات القاصمة التى وجهت للمذهب الإمامى المتطور إلى اثنى عشرى . حقًّا إن الإسماعيلية كانت تجد مادتها من الأتباع من شيعة الاثنى عشرية ، الذين كانوا يفضلون إماماً حيًّا ذا حجج ودعاة ويعمل للدنيا من إمام محق فى سرداب ، ينتظرون قيامه بدون أمل كبير ، كما كانوا يفضلون عقائده السرية ونظامه الغنوصى أكثر من عقيدة فى معظمها ظاهرية ، تقترب فى عباداتها وطقوسها من عقائد أعدائهم اللد : أهل السنة والجماعة .

ولقد تعددت الأقوال فى الإسماعيلية ، أصلها ومنشئها أئمتها وحججها ، دعاتها وجزائرها — إذا تكلمنا بالأسلوب الإسماعيلى ، هل هى دعوة إسلامية تدخل فى نحل المسلمين وفرقهم ؟ أم هى ملة جديدة انفصلت عن الإسلام نهائيًّا ، وكونت دينا جديداً ؟ .

وإذا كانت الكيسانية — شيعة محمد بن الحنفية القديمة — قد أنشأت دولة — هى الدولة العباسية — مستندة على أحقية رجل من بنى هاشم فى الخلافة — هو العباس بن عبد المطلب وإذا كانت الزيدية — قد أنشأت دولة — هى دولة الزيود — فى اليمن — مستندة على أحقية أئمة زيديين ينتسبون إلى أولاد الحسن فإن الإسماعيلية أنشأت — خلال جهاد ودعوة صابرة مريرة — دولة الفواطم فى مصر ، مستندة إن حقًّا وإن باطلاً على أئمة ينتسبون إلى فاطمة الزهراء . أما الشيعة الاثنى عشرية فلم تنشئ دولة قام بها أحد أئمتهم ، لأن الإمام الأخير انتهى عقبه ، أو اختفى ليعود فى آخر الزمان .

وإذا كان المذهب الإمامى يعلن أنه ينبثق من جعفر الصادق ، وينتسب إليه ، والمذهب الاثنى عشرى يعلن — إن حقًّا وإن باطلاً — أنه صدر من الإمام والأئمة من قبله ، والأئمة من بعده ، عن لسانهم وبشروا به فى آثارهم ، فإن الإسماعيلية — ناقضة لكل هذا — تستند أيضاً على هذا الإمام جعفر الصادق ، معلنة أنه هو الذى أنشأ الدعوة الإسماعيلية ونظمها ووضع أصولها وأن سياسته البعيدة المرمى هى التى مكنت لها النجاح الكامل فى اليمن وفى المغرب ثم فى مصر .

ولكى نتفهم العلل التى أدت إلى قيام الإسماعيلية ، علينا أن نعرض فى إيجاز للخطوط الرئيسية ، وهى التى تكلمنا عنها من قبل ، للحركات الشيعية حول جعفر الصادق ، وفى صدر الدولة العباسية .

كانت الشيعة الحسنية تحارب بعنف بالغ الدولة العباسية ، وقد سقطت صرعى لضربات المنصور وخلفائه من بعده فى المدينة والبصرة وفخ وغيرها ، وقد صدقت فراسة جعفر الصادق فى إبمانه بأن حركة الحسنيين ستنتهى إلى كارثة مدمرة لهم ، ولا شك أن أتباع الحسنيين أو الكثيرين منهم عادوا إلى حظيرته ، وفر البعض منهم إلى اليمن وغيرها وأنشأوا دويلات زيدية . أما الشيعة الكيسانية ، فقد رأينا كيف كونت هى فى مجموعها الراوندية ، وانفصلت الراوندية نهائيًا عن البيت العلوى ، ولكن بقيت من الكيسانية بقية كبيرة تؤمن بإمامة محمد بن الحنفية . وكانت مجالاً لغنوص كبير . وسنرى أنه بعد فشل ثورات الكيسانية المتعددة أنهم عادوا إلى سواد الكوفة ، وعاشوا فيها ، وظهر منهم حمدان قرمط ، وسيكون أكبر عون للحركة الإسماعيلية [1] ، مدة من الزمن ثم ينقلب عليها ويعود لعقيدة الكيسانية .

وبجانب هؤلاء جميعاً من حسنية وراوندية وأبى هاشمية وأبى مسلمية ظهرت الخطابية متعلقة بأذيال الإمام العظيم نفسه .

وفى هذا المعترك العنيف كان جعفر الصادق « نسل النبوة العظيم ، وعلى هدى أسلافه الأطهار ، قابضاً على كتاب الله وسنة رسول الله ، يؤدى رسالته الروحية للمسلمين جميعاً ولشيعته على وجه الخصوص ، عاملاً بكل جهده على تنقية عقيدة مريديه وأتباعه من أى مذهب خارج عن الإسلام » محارباً للغنوص فى جميع مظاهره ؛ ومجالداً أشد وأشد للطمع الدنيوى فى نفوس كثيرين من الحسنيين والزيود ، كان جعفر الصادق يمثل الأسرة النبوية أعظم تمثيل ، ويضرب المثل الأعلى لما يكون عليه الأثر الباقى لعترة رسول الله وابن فاطمة الزهراء ، فنأى بنفسه عن خلافات الدنيا ، مدعماً فقط لإمامته الروحية للمسلمين بل إن عدوه اللدود أبا جعفر المنصور يقول حين بلغه موت الإمام : إن جعفراً كان ممن قال الله فيه « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات [2] .

ولكن الرجل كان يعانى أزمة داخلية تمس أشد المساس حياته كأب وكإمام للمسلمين فى الآن عينه . كان الإمام جعفر يعد ابنه الأكبر إسماعيل – وكان يعرف بإسماعيل الأعرج – للإمامة الروحية

(١) الدكتوران حسن ابراهيم ، وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٣ ص ١١٧ .

للمسلمين من بعده ، وكان الإمام يحب ابنه حبًّا جما ، كما يحب الرجل ابنه الأكبر .

وقد وردت بعض الأخبار التاريخية أن إسماعيل اتصل بالغلاة ، وبخاصة الخطابية أو أن الغلاة اتصلوا به ، وقد وردت بعض الروايات أيضاً أن إسماعيل شرب الخمر ، فأسقط أبوه إمامته فى حياته . أما أنه اتصل بالغلاة ، ليعد الأمر لنفسه ولأولاده من بعده . فأنا أشك كل الشك فى هذا ، فإن محبة الإمام لإسماعيل وحدبه عليه وجزعه لوفاته يدل دلالة واضحة على أن الابن كان بريئاً مما اتهم به بعد من غلو ، أو بما ألصقه به بعض المتأخرين من تهمة شرب الخمر ، حتى يحلوا لأنفسهم هذا الشرب بدعوى أن الإمام وأتباعه لا يخضعون للتكاليف الشرعية . وقد نسب إلى إسماعيل مزاملته وصداقته للمفضل بن عمر الجعفى الصيرفى ، وأورد الكشى أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل بن عمر الجعفى الصيرفى ، وأورد الكشى أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل لابنه إسماعيل وأنه قال له : يا كافر يا مشرك – مالك ولابنى – تريد أن تقتله »[1] ولاشك فى هذا فقد كان المفضل الصيرفى من أجل أصحاب الصادق ، ثم تابع أبا الخطاب وكون فرقة . ولكن ما لبث أن تحول إلى موسى الكاظم وخدمه . وكتب كتاب توحيد المفضل . وهو من أحسن من كتب فى الرد على الدهرية [2]

ويبدو أن الغلاة اتصلوا بإسماعيل ، وذلك حين غضب عليه أبوه ، وأنهم حاولوا التأثير فيه وجذبه إلى صفوفهم وكان إسماعيل فى ميعة الصبا ، وكما خدع فيهم أبوه من قبل ، خدع أيضاً ، فلما تدخل أبوه ، خلص منهم ، وعاد إلى رحابه كاملاً ، أما قصة شربه الخمر ، فهى قصة متهافتة . وقد أورد بعض كتاب الإمامية القصة للقدح فى أحقية إسماعيل للإمامية . ووردت على هذه الصورة الآتية قال عنبسة الناووسى : «كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، فى باب الخليفة أبى جعفر بالحيرة حين أتى ببسام – وكان غالياً – وإسماعيل بن جعفر بن محمد فأدخلا على أبى جعفر ، فأخرج بسام مقتولاً ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال . أفعلتها يا فاسق ؟ أبشر بالنار ! » وواضح تماماً أن القصة موضوعة ، فلم يكن أبو جعفر المنصور من الكرم النفسى مع جعفر الصادق ، بحيث لا يهتبل تلك الفرصة النادرة ، ويقتل إسماعيل باسم الشريعة ، وبخاصة أنه أتى به إليه فى صحبة غال زنديق . وكان جعفر الصادق «شجا» فى حلق المنصور على حد تعبيره هو ، يتخوف منه الخوائف ويتربص به الدوائر .

أما الامامية الاثنا عشرية فى مجموعها فقد اعتبرته رجلاً صالحاً «وكان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام» أى ممن أخذ عنه ، وكان أبوه شديد المحبة والبر به . وترى أن البعض من أتباع

---

(١) الكشى : ٢٠٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٣ والبغدادى : الفرق ص ٢٣٦ .

الإمام كانوا يعتقدون فى حياة أبيه «أنه القائم بعده والخليفة له دائماً . فلما مات فى حياة أبيه ، حزن الإمام حزناً شديداً «وتقدم إلى سريره بغير حذاء ولا رداء» ثم لما حمل إلى البقيع أمر أبوه مراراً أن يوضع نعشه على الأرض . قبل دفنه – حتى يتحقق الناس من وفاته ، ويقطع الطريق على من ظنوا خلاف ذلك (١) .

وكأن جعفراً خشى أن ينتقص الأمر بعد على ابنه موسى أو أن يقول بعض الناس بمهدية إسماعيل ، وكانت الفكرة منتشرة والغلو ذائعاً . ولكن لم يمنع ما فعله جعفر من أن تقوم الإسماعيلية «الخالصة» على حد تعبير النوبختى . فكان إسماعيل لديهم الإمام السابع .

وقد عللوا هذا بأنه ابن الصادق الأكبر المنصوص عليه فى بدء الأمر وأن أمه فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن على بن أبى طالب ، فهى فاطمة علوية أيضاً . ولم يتزوج الإمام جعفر الصادق على أمه بواحدة من النساء – ولا تسرى عليها ، كسنة رسول الله ﷺ فى خديجة ، وكسنة على فى فاطمة .

أما عن موته فقد اختلفت الإسماعيلية الأولى ، فالبعض منهم أقر بموته . إنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة ، كما نص موسى على هارون ، ثم مات هارون فى حياة أخيه . فانتقلت الوصاية بعد موت موسى إلى أولاد هارون ، فنص عليه لكى تكون لأولاده «فإن النص لا يرجع قهقرى (٢) والقول بالبداء محال . وأورد الإسماعيلية قول الصادق «إن البداء والمشيئة لله إلى كل شىء إلا فى الإمام » (٣) ثم إن الإمام لا ينص على واحد من ولده إلا بالسماع من آبائه ، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة . والإمامية لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب ولم يكن لأخوى إسماعيل ، عبد الله وموسى حق فى الإمامة كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين (٤) .

أما من قالوا بأنه لم يمت ، فإنهم عللوا هذا بأن جعفراً الصادق أظهر موته تقية عليه ، حتى لا يقصده أبو جعفر المنصور بالقتل . وأنه قال «لو جاءكم أحد بدماغ ابنى هذا «إسماعيل» فلا تشكوا أنه الإمام من بعدى» وكان يقول : «هذا هو الإمام من بعدى . فما أخذتموه عنه ، فهو عنى» (٥) وأنه فتح عينيه وحركها وهو على فراش الموت ، وأن إسماعيل رؤى بالبصرة عام ١٥١ ومر على مقعد ، فدعا له ، فشفاه بإذن الله . وهم ينسبون له معجزات المسيح» ويرى الإسماعيليون فيما بعد أنه قد فعل

(١) النوبختى : الشيعة ص ٦٧ هامش (٢) .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٣٠–٣٣١ .
(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .
(٤) النوبختى : الشيعة ص ٦٨–٦٩ .
(٥) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

هذا إعجازاً للخلائق ؛ بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين من بيته لأن تتم الحكمة ، وتتصل إلى الخلاق رحمة وتكمل الحجة ، وتتم النعمة » فنسبوا إليه إذن الغيبة – غيب شخصه فى حياة أبيه سرًّا من أعدائه ومحنة لأوليائه » (١) .

ولما رفع إلى المنصور بأن إسماعيل مازال حيًّا ، أرسل إلى جعفر الصادق يخبره أن إسماعيل فى الأحياء ، وأنكر جعفر هذا ، وأنفذ السجل إليه ، وعليه شهادة عامله أى عامل المنصور على المدينة . ويتساءل الإسماعيلية» ما السبب فى الإشهاد على موته ، وكتب المحضر عليه ، ولم نعهد ميتاً سجل على موته » (٢) .

ويريد الإسماعيلية بهذا أن جعفراً فعله تقية ، حتى لا يعرض ابنه للقتل . وفى الحق أن جعفراً فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته . لا خوفاً عليه من المنصور .

وسرعان ما نادى قوم – من خواص إسماعيل بالمدينة – بعد وفاة الإمام جعفر بمهديته (٣) ، وبخاصة أن ابنه الأكبر – عبد الله الأفطح – لم يكن على علم وفقه ، ثم توفى بعد سبعين يوماً من وفاة الإمام ، وتحولت جماهير الشيعة إلى موسى الابن الأصغر الذى عرف باسم الكاظم ، هنا ظهر المبارك – خادم إسماعيل – والمبارك شخصية غامضة – قيل إنه حجازى – وأنه كان خادماً لمحمد بن إسماعيل . وأنه كان يجيد نوعاً من الخط انتشر فى هذه الأيام يسمى مقرمط . ولذلك عرف باسم قرمطويه . وسنجد حين بحثنا للقرامطة أن هذا خطأ . وأن قرمطويه شخص آخر من أتباع المبارك . وقيل إنه كوفى ومن المحتمل أن يكون هو محمد بن إسماعيل . وعلى أية حال فقد ظهرت المباركية وهى الفرقة الأولى الموسومة باسم الإسماعيلية ، ومن الواضح أنها ليست فرقة غالية والبغدادى يذكرها من بين فرق الشيعة غير الغالية ويقول إن المباركية تريد الإمامة فى ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر كدعوى الباطنية فيه .

ويبدو أن الرجل – إن صح وجوده – كان خادماً مخلصاً لإسماعيل وكان يحبه ، كما كان يحب ابنه محمداً . فلما مات الإمام جعفر عمل على تثبيت الإمامة لابن سيده – محمد – ، ومن المحتمل أنه اتصل بالغلاة بالكوفة ، وبخاصة أنه كان كوفيًّا ليقوى الدعوة الجديدة . وقد بقيت اسم المباركية فى التاريخ ، مختلطة أحياناً باسم الإسماعيلية الحديثة وأحياناً أخرى باسم الباطنية . وما زال للمباركية أنصارها فى سلطان بوهر الحالى وأتباعه الإسماعيلية ، وهم يسمون أحياناً بالمباركية .

والاسم الثانى الذى يختلط باسم منشئ الإسماعيلية هو اسم أبى الخطاب الأسدى . وقد رأينا من

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٤٩ .

(٢) الشهرستانى : الملل.. ج ١ ص ٣٣١ .

(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ .

قبل أن أبا الخطاب لقب بكنية أبي إسماعيل ، وفى هذا دليل على الصلة بين أبى الخطاب وإسماعيل ، وأن تلقيبه بهذه الكنية – إنما معناه أن الخطابية أصل للإسماعيلية ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أبا الخطاب – فى الفترة الثانية من حياته ، وبعد تبرؤ الإمام جعفر منه ، وتبرؤ إسماعيل أيضاً – قد نقل الإمامة إلى نفسه كما يقول ماسينيون باعتبار أن الاختيار الإلهى بالتنبى الروحى هو وحده المعتبر. قد تكون فكرة التنبى الروحى الخطابية ملهمة للقداحية – فيما بعد – حينما سلبوا – فى رأى أغلب مفكرى أهل السنة – آل محمد – الإمامة أو النبوة والألوهية ونسبوها إلى أنفسهم ، ولكنها لم تكن أبداً فى هذا الوقت المبكر سنداً لفكرة الإسماعيلية ، ولاشك أن الكثير من أصول الخطابية قد دخلت فى عقائد الإسماعيلية فيما بعد ، ولكن تم هذا بعد مقتل أبى الخطاب ، واعتناق كثير من أتباعه للإسماعيلية فى عهد عبد الله بن ميمون القداح . وقد لاحظ ماسينيون أننا نستطيع أن نربط بين فكرة السبن عند أبى الخطاب الأسدى وبين فهم الإسماعيلية للدور الذى قام به سلمان حين حمل القرآن كله إلى محمد . فأبو الخطاب – عند ماسينيون – هو أول من فهم دور السبن – دور سلمان – حين حاول أن يحققه فى نفسه .

ثم أتت الإسماعيلية وفهمت نفس هذا الدور . والإسماعيلية مسلمون يؤمنون بالوحى على نحو خاص فيه يستبدل بإملاء ملك نحوٍ تعليماً ينتقل من نفس إلى نفس ، نقله بامر الله إلى النبى صاحبه سلمان ، فسلمان هو الملك جبريل ، وهو الاسم الذى أطلق على سلمان باعتباره حامل الرسالة الإلهية . فهو إذن سبب الشد والتلقين [١] .

وقد قلت من قبل إن هذا هو تفسير ماسينيون لموقف أبى الخطاب أولاً ، ثم لاعتباره ثانياً سلفاً للإسماعيلية ، أومؤسساً لها . ولكنه لا يصور الواقع أبداً .

إن الوضع الحقيقى للمسألة أن الخطابية بعد مقتل رئيسها توزعت . دخل البعض فى طائفة الخناقين ، ودخل البعض الثانى فى الكيسانية ، ودخل البعض الثالث فى الإسماعيلية أو الإئتمام بإمامة محمد بن إسماعيل . ولعل البعض الثالث هذا كان أكثر الخطابية .

ولذلك نرى أبا خلف القمى يقول «فأما الإسماعيلية فهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة فى فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل ابن جعفر» [٢] .

ولكن انتشار الدعوة لإسماعيل ثم لابنه إنما بدأت على يد مولى لجعفر الصادق هو ميمون القداح

---

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة عبدالرحمن بدوى) .

(٢) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٦٩ .

وابنه عبد الله بن ميمون وذهبت بعض المصادر إلى أنهما كانا تلميذين لأبى الخطاب . وهذا محتمل ؛ ولكن يبدو أن صلتهما به قد انقطعت حين تبرأ منه الإمام جعفر . وقد اتهمت دوائر أهل السنة والجماعة الاثنين بأنهما ديصانيان ، وأن ميمونا هو ابن ديصان بن سعيد غضبان ، وقيل إنهما يهوديان ، وأنهما أنشآ المذهب الإسماعيلى للقضاء على الإسلام . وهذا خطأ كبير فميمون القداح كان مولى للباقر وجعفر الصادق ، ووثق به الإمام الأخير ، وكان من رواة حديثه ، ويبدو أنه اختص بإسماعيل وأحبه ، ثم اختص بابنه محمد بن إسماعيل .

ويبدو أن ميموناً – وقد عاش فى هذا الوسط العلمى وتتلمذ على شيخى المذهب الإمامين الكبيرين الباقر والصادق – كان على علم بنفاذ وحنكة سياسية ، وأخذ ينتقل مع إمامه محمد بن إسماعيل إلى طبرستان وغيرها متخذاً نفسه حجة له ، وقد قبض المنصور فى أواخر أيامه على ميمون وسجنه ، وفى السجن اجتمع مع جماعة من وجوه الشيعة ، واتفقوا على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن [1] .

ويقول ابن الأثير . إنهم تفرقوا فى البلاد ، وتعلموا الشعبذة والسحر والنجوم والكيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما يتفق عليهم ، ويخدعون العامة بإظهار الزهد والتقشف .

وخرج ميمون من السجن واجتمع بإمامه محمد بن إسماعيل مرة ثانية منتقلاً معه من مكان إلى مكان ، ويقال إنه ذهب إلى فلسطين ، وهناك أظهر النسك والتعبد ، ثم قصد إلى سورية وطبرستان ، وقيل أيضاً إنهما ذهبا إلى بلاد الروم [2] ، وقد نشأت فكرة غيبة محمد بن إسماعيل هناك . وفى كل مكان كان يجمع حوله فلول المباركية والخطابية والجعفرية ، ويعد العدة للمذهب الجديد .

ويذكر المؤرخون السنيون أن له كتاب «الميزان» وأنه كتب هذا الكتاب فى نصرة الزندقة . وهذا مستبعد جداً فلم يكن الرجل زنديقاً أو ديصانياً ، فى أول أمره على الأقل . بل كان أولاً – وبالذات – من محبى ومتشيعى إسماعيل بن جعفر وابنه ثم من المحتمل – وقد كان الرجل عارفاً بالمذاهب الفلسفية والغنوصية والأديان – أنه كان يحاول تدعيم إمامة إسماعيل وابنه بمختلف العناصر الفلسفية وبخاصة أنه تتلمذ مدة على أبى الخطاب . وإن كنا نلحظ أن الإمام جعفراً الصادق لم يتبرأ منه فى حياته بل كان يثق فيه ، وقد جعله قيماً على حفيده ، وكان أيضاً من رواته ورواة أبيه ، ولم يرد عن جعفر الصادق حتى موته ما يقدح فيه ، كل هذا يجعلنا نتوقف كثيراً فى الحكم على الرجل بالزندقة أو بالديصانية . من المحتمل أن يكون الكتاب فى التأويل الباطنى ، وأنه أخذ يؤول الآيات القرآنية بما يتفق مع عقيدته فى إمامة إسماعيل وابنه محمد . وأن يسبغ عليهما القداسة التى أضفتها الإمامية على أئمتها ، وأنه تغالى إلى

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٦٩ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف : عبيدالله المهدى ص ٤٨ .

حد كبير فى فضائل هذين الإمامين . والغلو فى الأئمة خروج على الإسلام فعلاً – نصه وروحه – ولكنه يختلف عن الديصانية الخالصة أو الزندقة الخالصة ، وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطراً على الإسلام ووحدته من كل ثنوى سافر .

وأخيراً . إلى من كان ينتسب ميمون ؟ . . ذكر بعض الباحثين أن ميموناً كان مولى لجعفر الصادق ، وأنه كان يسمى ميموناً القداح المكى ، وأحياناً ينسب إلى الأهواز فيقال له الأهوازى . وأحياناً ينتسب إلى عقيل بن أبى طالب ، أو إلى باهلة ومرة يعلن أنه من نسل سلمان الفارسى . أما كونه مكيًّا أو أهوازيًّا أو ينتسب ولاء إلى عقيل بن أبى طالب ؛ فمن السهولة بمكان تفسيره . أما ادعاؤه أنه من نسل سلمان الفارسى ، فقد ظن كثيرون من الباحثين أنه يدعى أنه من نسل الصحابى الكبير دماً . وهذا خطأ . إن ما يقصده ميمون أنه لصلته بالإمامين الباقر والصادق ثم بإسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل ولوصاية جعفر الصادق له أن يكون قيماً على حفيده محمد بن إسماعيل ، فهو من آل البيت ، كما قال رسول الله ﷺ لسلمان « أنت منا آل البيت » فهو من نسل سلمان الروحى ، وعلى مثاله ونسقه ، ولم يتنبه ماسينيون إلى هذا ، ولعله إن فعل ، لوضعه فى فرق السين ، غير أن ميموناً لم يعلن أنه حامل القرآن – كما ادعت الإسماعيلية فيما بعد ، ولا أنه سبب الشد والتلقين ، ولا أنه رسول أو نبى . وإنما أعلن أنه حجة الإمام محمد بن إسماعيل ونائبه ، وداعيه .

وأخيراً – إن الصورة التى قدمتها مختلف الفرق لميمون القداح : أنه كان محدثاً شيعياً عند الإمامية ، حجة ونائباً وستراً للإمام محمد بن إسماعيل عند الإسماعيلية ، ثنويًّا ديصانيًّا عند أهل السنة والجماعة . بل لقد ذهبوا إلى أن ميمون القداح هو أبو شاكر ميمون الديصانى . أما الصورة المتكاملة له : أنه كان محدثاً وراوياً ومولى لجعفر الصادق ، أحبه الإمام واحتضنه واعتبره من آل البيت ولاء ، كما فعل جعفر مع أبى الخطاب ثم إن ميموناً كان من تلامذة أبى الخطاب . وقد ارتبط ميمون بإسماعيل الابن الأكبر للإمام ، وكان للابن من الفضائل النفسية والروحية والعلمية ما جذب إليه مولى أبيه ، ثم جعله الإمام جعفر وصيًّا على حفيده ، ولما انتقل جعفر إلى جوار ربه ، نقل ميمون الإمامة لمحمد بن إسماعيل ، وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان إلى مكان ، وأخذ يضع أصول الدعوة محتملاً السجن والاضطهاد والتشريد .

ومن الملاحظ أنه لم يتعرض لهجمات الإمامية كما تعرض أبو الخطاب الأسدى ، ولم يحاول الرجل تقويض دعائم الإسلام – كما ذهب مؤرخو العقائد الإسلامية من أهل السنة – فلم يعمل على وضع مذهب باطنى يخرج المسلم من إسلامه كلية ، إنما كان يضع المذهب الإسماعيلى ، وفى المذهب – وهو يكافح السلطان نواح باطنية بلا شك ، ولم يكن يرمى إلى سلخ المسلمين باطنيًّا من العقيدة الإسلامية

بل إلى سلخهم من عقيدتى أهل السنة والجماعة ومن عقيدة الإمامية . وقد لجأ إلى منهج التأويل وكان محمد بن إسماعيل أيضاً من أئمة مذهب التأويل . ولعل كتابه الميزان إنما كان فى التأويل القرآنى .

ومات ميمون بعد عام ١٩٨ هـ – فيما يرجح – أى بعد وفاة محمد بن إسماعيل وتذهب روايات أهل السنة إلى أن محمد بن إسماعيل مات بدون عقب ، وأن ميموناً القداح أدعى أن محمد والد ابنه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن الصعوبة بمكان أن نجزم بهذا .

وأخيراً – أن هذا القداح – والقداحة هى تطبيب العين من الماء النازل بها ، وهو نوع من طب العيون انتشر فى ذلك العصر – قد وضع البذرة الأولى لحركة من أكبر حركات التاريخ فى العصور الوسطى – لعبت دورها العجيب على المسرح الإسلامى ، وأخذت صوراً مختلفة تغاير ما وضعها هذا القداح ، وتفرعت عنها المذاهب ، وتطورت وتغيرت .

ويحاول بعض الباحثين مثل مامور أن يثبت أن ميموناً القداح هو هو محمد بن إسماعيل . ويذهب إيفانوف إلى أن محمد بن إسماعيل كان يعرف باسمه السرى « الميمون » ، وأحياناً بعبد الله بن الميمون [1] . ومن هنا خلط الباحثون السنيون بينه وبين ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وظن الباحثون أن هذا الأخير هو جد الخلفاء الفاطميين . ولإيفانوف أبحاث طويلة وكثيرة ومستفيضة ، وهو حجة فى مسائل الإسماعيلية ولن نناقش نحن هنا كتبه وما فيها من آراء متعددة وبخاصة كتابيه : The alleged of Ismailism و Rise Of The Fatimide بل نؤخر هذا لفرصة أخرى غير أن أهم ما قدمه لنا إيفانوف فى كتابه « المؤسس المزعوم للإسماعيلية » هى جملة الأحاديث التى رواها ميمون عن الباقر والصادق ، وهى تبين أنه كان خادماً أميناً للباقر يرحل معه فى كل مكان ويستند عليه فى سيره ، ثم صحب جعفراً الصادق نفس الصحبة ، ثم إثباته أن اسم عبد الله بن ميمون ورد فى كتب أهل السنة من المحدثين كابن النجار والذهبى وابن حجر ولم تنسب إليه تهمة الإلحاد . فميمون إذن كان من رجال الباقر والصادق المخلصين وكان أولاده عبد الله وأبان وإبراهيم من خواص خدم وموالى جعفر الصادق ، وكان أبان مقرئاً – ويقرأ القرآن أمام الإمام ، وكان عبد الله محدثاً يكتب أحاديث الإمام .

ثم أنكر إيفانوف إنكاراً تاماً ما ذاع من أن ميموناً القداح وابنه عبد الله كان أئمة مستودعين للإمام ، وأثبت أن هذا النظام لم يكن معروفاً فى عهدهما وإنما هو من ابتداعات القرن الرابع الهجرى .

وكل ما يمكننا أن نقوله الآن هو أن أبحاث إيفانوف تمتاز بالخصوبة والعمق ، ولكن الرجل كان يقف دائماً بجوار الفكرة الإسماعيلية ويجعل نفسه أسيراً لها . ولا يرى سواها . وقد بين لنا الكثير من الأخطاء التى وقع فيها مؤرخو الإسماعيلية من أهل السنة والجماعة والاثنى عشرية ، ولكنه وقع هو نفسه

---

(1) Ivanov: The alleged of Ismailism. P 75,76.

فى أخطاء كثيرة لا محل لمناقشتها فى هذا الخبر المختصر [١].

وقد رأينا أن مامور ذهب إلى أن ميموناً القداح هو محمد بن إسماعيل ، فهل نحن أمام قصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر مرة أخرى . وقد قيل إن المعز لدين الله ذكر أن كلمة الميمون هو لقب لجده عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه كان يدعى بالميمون النقيبة ، وأن هذا اللقب كان يطلق أيضاً على محمد بن إسماعيل وكذلك أضيف إلى إسماعيل بن جعفر ، كما كان يطلق المبارك على الإمام إسماعيل كما أن القداح كان لقباً لها ، ذلك أن القداح هو الذى ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . أو هو الذى تنقدح فيه ومنه الحكمة اللدنية .

لم يتنبه مامور أو إيفانوف إلى موازاة هذه القصة لقصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر ، فالأبحاث الحديثة تنكر وجود بن سبأ وتعتبر اسمه رمزاً على عمار بن ياسر ، ثم حمله الأمويون والنواصب أقوال غلاة الكوفة من بعده ، فهل فعل العباسيون هذا أيضاً ؟ ولم تكن هناك شخصية حقيقية تدعى شخصية «المبارك» أو شخصية حقيقية تدعى ميموناً القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون ، وإنما وجد الأئمة فقط . هذا مجرد ترجيح لأننا نرى داعياً إسماعيلياً هو الداعى عماد الدين إدريس (توفى عام ٨٧٢) يقول : «وقام إسماعيل بن جعفر صلوات الله عليه – المبارك الميمون فى كنف أبيه وعهد بمحمد ابن إسماعيل وهو ابن ثلاث سنين إلى ميمون القداح قدس الله روحه ، وهو كفيل له ومستودع أمره ، وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد يعقوب بن إسحق» .

ثم يذكر أن جعفراً الصادق أقام موسى بن جعفر حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله بابا له أى «ميمون» ، الستر عليه والكفيل له ، وكتم الصادق منزلة ابن ابنه ، وأقام له ميموناً القداح وابنه عبد الله بن الميمون كفلاء ، وأخفى أمر ذلك عن الخاص والعام إلا على المخلصين العارفين من أتباعه [٢] .

إن مسألة القداحين تحتاج إلى بحث أكبر ، ومناقشة علمية أدق . غير أنه يمكن القول إن ميموناً القداح إنما يرتبط اسمه سواء صح وجوده أم لم يصح بإسماعيل بن جعفر وابنه ، كما يرتبط عبد الله ابن ميمون بهما وبأولادهما ، وكما ذكرت من قبل فى قصة عبد الله بن سبأ : إننا سواء أنكرنا وجوده كحقيقة تاريخية أو لم ننكره فإن الآراء السبئية قد وجدت ، وهنا أيضاً وجدت الآراء القداحية الميمونة . والميمونية الأول أو إسماعيلية عصر ميمون – القداح الأول – تؤمن كالإمامية بالعصمة اللامتناهية

---

(١) ناقش الأستاذ محمد عبدالله عنان بعض حجج إيفانوف فى كتابه الحاكم بأمر الله وتحتاج المسألة إلى مناقشة أكثر ، علاوة على أن الكثير من حجج إيفانوف التى ناقشها الأستاذ محمد عبدالله عنان صحيحة على غير ما تصورها هو.

(٢) انظر الأستاذ محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٦٤ وإيفانوف «نشأة الفاطميين» من ص٤٧–٤٩ .

للإمام ، وتعتقد أن الإمامة لقب من الله ، وأنها واجبة لحفظ الشريعة وجوباً أزلياً فى علم الله القديم ، وتعتقد أيضاً بوجود هذا النور الأول الأزلى الذى انتقل من نبى إلى نبى ومن إمام إلى إمام ، ولكن الخلاف الوحيد بين الإسماعيلية الأولى وبين الاثنى عشرية هو أن الاثنى عشرية تتوقف عند الإمام الثانى عشر بينما الدور الأعظم للأئمة عند الإسماعيلية ينتهى عند الإمام السابع ، ليبدأ دورة أخرى للأئمة . هكذا كانت فكرة الإسماعيلية فى أول الأمر ثم ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة بما فيها من فيثاغورية محدثة وأفلاطونية محدثة مختلطة بغنوص المذاهب الفارسية آخذة من كل مصدر ، داخلة فى الدور الباطنى المخيف ، داخل الإمام الإسماعيلى فى دور الستر . كما دخل الفكر الإسماعيلى فى دور الباطن .

وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصول المقبلة .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الإسماعيلية الباطنية

وظهور رسائل إخوان الصفا

كان «إسماعيل» مسجى على سرير الموت سنة وفاته عام ١٣٥ عند البعض و١٤٥ عند البعض الآخر، والإمام جعفر الصادق يعيش فى مأساة حزينة، تاخذ نفسه، وتعتلج فى صدره الآلام النوافذ، ويمشى إلى سرير ابنه مرتين حافى القدمين، كان يبكى ابنه الأكبر، ولكن هل شعر الرجل العظيم بما ستؤدى إليه وفاة إسماعيل من كوارث قاتلة، وأعاصير وزعازع تكاد تهز كيان العالم الإسلامى باسم إسماعيل.

هذا «الإمام الصامت» الذى حيكت الأساطير حوله فى حياته، كان فى موته أقوى منه فى حياته. كان ينظر إليه وهو مسجى على الفراش اثنان من موالى أبيه أحباه وآمنا به حيًا وميتاً. أما أحدهما فهو «المبارك الكوفى» مؤسس المباركية فى الكوفة، حين مات الإمام جعفر، ذهب إلى الكوفة مبشراً بإمامته وبإمامة ابنه من بعده، أما الآخر فهو ميمون القداح، هذا المولى الفارسى طبيب العيون، وقداح الحكمة، وراوية الحديث وخادم الإمام الباقر. ثم غلام الصادق، ميمون بن غيلان بن مهران بن سلمان الفارسى، من ولد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيداع، والقائمين بالبلاغ، على مدى الأجيال السحيقة إلى عهد إمام الأئمة وسيد العترة الطاهرة جعفر الصادق. «والإمام الصامت» حيًا وميتاً فى فراشه، وفى جنبات البيت الحزين، ابنه الصغير محمد بن إسماعيل فى الثالثة من عمره ورأى الإمام جعفر أن يعهد بحفيده لأحب مواليه إليه، وهو ميمون. ومات جعفر الصادق بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة ابنه إسماعيل.

ورأى المبارك – كما رأى ميمون – كيف اختلف أولاد جعفر على إمامة أبيهم ورأى أن الثلاثة لا يصلحون «أما الأفطح أو الأفلح عند الشيعة فلم يكن على علم وكان حشويًا مرجئاً، وأما محمد الديباج فكان زيديًا ثم خضع للعباسيين وأقر على نفسه بالخطأ، وأما موسى الكاظم، فكان أصغر خوته وفى سن محمد بن إسماعيل. وهنا أعلن المبارك فى الكوفة إمامة محمد بن إسماعيل، وأما ميمون فقد رأى أيضاً أن الأحق بالإمامة هو محمد بن إسماعيل «ابن سيده القديم»، وقد كان يعده للإمامة بعد جده، بل أعلن الإسماعيلية كما قلنا من قبل – أن موسى كان وصيًا على ابن أخيه محمد بن

إسماعيل ، فكان موسى إماماً مستودعاً لابن أخيه الإمام المستقر محمد بن إسماعيل . ولكن موسى طمع فى الإمامة له ولأولاده من بعده أو أنه فعل هذا تقية ، حتى يعمل الإمام الحقيقى محمد بن إسماعيل فى صمت وهدوء .

كان سن محمد بن إسماعيل . كما قلت — حين توفى جده ستة عشر عاماً ، وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى القوى يحكم العالم الإسلامى بيد من جديد ، ويتتبع أعداء البيت العباسى بالقتل ويبدو أنه حتى وفاة أبى جعفر عام ١٨٥ هـ ، لم يقم محمد بن إسماعيل بأى نشاط ، بل إنه كان فعلاً فى سن لا يسمح له بالقيام بالدعوة لنفسه . إن من الأرجح أن يقال : إن ميموناً كان يعده للإمام . ثم تولى الخليفة المهدى ، (المتوفى عام ١٦٩ هـ) ، بعد أبيه جعفر المنصور وتتبع هو أيضاً الزنادقة ، وقضى على الخناقين من أتباع الحسين بن منصور ، وكذلك قام ابنه موسى الهادى (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) بنفس الشىء وقتل أيضاً الحسنيين فى فخ ، وحارب الزندقة ، وتابع الرشيد (المتوفى عام ١٩٣ هـ) سياسة أخيه وأبيه ، وحارب الإمامية ، فسجن إمامها موسى الكاظم . وقتله بالسم عام ١٨٣ هـ . وترى الإمامية أن محمد بن إسماعيل هو الذى أوقع بعمه موسى الكاظم لدى الرشيد حتى حبسه ، وأن الخليفة أجازه على وشايته بمبلغ من المال . ولكنه طعن فى نفس الليلة [1] . وهذا يعنى أن محمد بن إسماعيل مات فى بغداد وفى ضيافة الرشيد والقصة كلها مختلفة . إن من الثابت أن محمد بن إسماعيل مات عام ١٩٨ هـ ، أى أنه حضر جانباً من عهد المأمون نفسه . وأن صلاته لم تكن على وفاق مع الخليفة هارون .

لقد مضى عهد المهدى والهادى ، وفترة كبيرة من عهد الرشيد ، ومحمد بن إسماعيل آمن فى الحجاز ودعاته يعملون فى سرية وغموض ، المبارك من ناحية ، وميمون من ناحية ، يقتنصان فلول الخطابية والأبى مسلمية والأبى هاشمية والزيدية والإمامية نفسها . وتسير الدعوة فى مرسومة ، ولكن هارون يفتح أذنيه ، ويلتمس الفرص للإيقاع بمحمد بن إسماعيل . وهنا رأى محمد أن يدخل فى الدور الهام الذى عرفته الإسماعيلية بدور الستر ، فيهرب من الحجاز ، متنقلاً من مكان إلى مكان ، إلى فرغانة وإلى نيسابور ، حيث استقر فى قرية من قرى الرى هى سملا ، وقد نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد آباد . وكان يرجو من رحلته هذه :

أولاً : اتخاذ دار هجرة وقد أصبحت هذه عقيدة عند الإسماعيلية .

ثانياً : أن يكون بعيداً عن عيون الخليفة فى الحجاز ، فيستطيع بسهولة أن يبث دعاته .

ثالثاً : فشله فى الحجاز أمام عمه القوى موسى الكاظم والإمامية ، ولم تستجب له الإمامية كثيراً .

---

(١) النوبختى : الشيعة هامش ١ ص ٦٨ .

رابعاً : كانت الحجاز مليئة بالعلماء والفقهاء فى عصر العباسيين الزاهر ، ولاشك أن محمد بن إسماعيل كان من أصحاب منهج التأويل الباطنى – وإن كنت أعتقد أنه لم يذهب فيه إلى المدى الذى ذهب إليه أتباعه فيما بعد وغلوا فيه ، إلا أن هذا المنهج لم يكن ليجد أذناً صاغية فى مدينة الرسول أو فى مكة .

خامساً : يبدو أن دعاته كانوا قد انتشروا فى شرق المملكة الإسلامية ونشروا الدعوة هناك . فذهب محمد بن إسماعيل إلى أرض زرعت له من قبل .

وحين مات محمد بن إسماعيل ادعى قوم من أتباعه أنه مهدى الأمة وأنه تغيب فى بلاد الروم . وأنه القائم المهدى وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ . وأن محمد بن إسماعيل من أول العزم . وأولو العزم عند هذه الطائفة – سبعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى عليه السلام ومحمد بن إسماعيل . أما علة كونهم سبعة ، فذلك لأن النظام الكونى والنظام الإنسانى كذلك . فأما عن النظام الكونى ، فإن السموات سبع والأرضين سبع ، وأما عن النظام الإنسانى : فإن الجسد الإنسانى سبع : يدان ورجلان ، وظهر وبطن وقلب ، والرأس الإنسانى سبع : عينان وأذنان وأنف وفم ولسان والأئمة سبعة ، وقلبهم محمد بن إسماعيل .

ثم حاولت هذه الطائفة أن تعلل نسخ الشريعة الإسلامية بأحاديث نقلية رووها عن الإمام جعفر : منها أنه قال : لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جديداً . وأنه قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء .

كما أعلنت هذه الطائفة أيضاً أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى هذه الدنيا . والدليل النقلى «فكلا منها رغداً حيث شئتما» وفى هذا إباحة للدنيا وإبطال لكل تحريم «ولا تقربا هذه الشجرة» أى موسى بن جعفر وولده من بعده ، من ادعى منهم الإمامة . ثم إن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين «وماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة فى كل جزيرة حجة ، وأن الحجج اثنا عشر ، ولكل حجة داعية ولكل داعية يد . واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها . ويسمى رجال تلك الفرقة الحجة الأب والداعية الأم واليد الابن . ويرى أبو خلف القمى أن عقائد هذه الفرقة الإسماعيلية تضاهى ثالوث النصارى : الله ومريم والمسيح .

وترى هذه الإسماعيلية أيضاً أن الفرائض والسنن التى أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن «وأن جميع ما استعبد الله به العباد فى الظاهر من الكتاب والسنة هى أمثال مضروبة وتحتها معان هى بطونها» وأن هذه البطون هى التى عليها العمل وفيها النجاة ، وأما الظواهر ففى استعمالها الهلاك والشقاء ، «وهى جزء

من العقاب الأدنى عذب الله به قوماً إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به » فالشريعة إذن عقاب يكلف به من لم يعرف إمام زمانه ، الذى يرفعها عنه . وقد تنبه النوبختى وهو يعرض لهذا المذهب إلى أن « هذا أيضاً مذهب عامة أصحاب أبى الخطاب »(١) ونحن نعلم أن الخطابية رفعت عن أنفسها التكاليف بأبى الخطاب .

هذه هى العقائد الباطنية الإسماعيلية الأولى أو بمعنى أدق هى تصور بقايا الخطابية لها مزيج من المسيحية الغنوصية والإسلام مع فيثاغورية محدثة تتلاعب بالأعداد ، وبخاصة العدد سبع والعدد اثنى عشر .

وقد أسماهم فخر الدين الرازى بالسبعية ومذهبهم : أن الدور التام سبعة ، بدليل أن السموات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع والدور التام للأنبياء سبعة فالأول آدم ووصيه شيث والثانى نوح ووصيه سام ، والثالث إبراهيم ووصيه إسماعيل وإسحق الرابع موسى ووصيه هارون ، والخامس عيسى ووصيه شمعون والسادس محمد عليه السلام ووصيه على . والإمام الأول على والثانى الحسن والثالث الحسين والرابع زين العابدين والخامس محمد الباقر والسادس جعفر الصادق والسابع إسماعيل بن جعفر . والمقصود عندهم بالرسالة « أن يلحق الجثمانيون من نوع الأنس بالروحانيين . فلما انتهت النوبة إلى محمد بن إسماعيل ارتفع التكليف الظاهر عن الناس »(٢) .

غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه الفرقة ليست هى الإسماعيلية الأولى الخاصة ولا المباركة أو بمعنى أدق ليست هى الميمونة ولا المباركية . ولقد تنبه فخر الدين الرازى إلى هذا فوضع الفرقتين الأوليتين فى فرق الإسلام ، ووضح السبعية فى الفرق التى تتظاهر بالإسلام ، وليست مسلمة على الحقيقة .

انتقل محمد بن إسماعيل إلى جوار ربه والعالم الإسلامى ، تتقدح فيه الآراء المتباينة فيهما : الإسماعيلية الأولى ، والمباركية ، والإسماعيلية والخطابية . . . وتولى الإمامة الإسماعيلية من بعده ابنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعروف بالرضى أو الناصر أو العطار ، وقام بحجته ميمون القداح لفترة قصيرة ، ثم توفى ميمون بعد أن أوصى بها لابنه عبد الله بن ميمون .

وسنرى إلى أى حد تطورت العقيدة الإسماعيلية فى عهد هذا الإمام وعهد حجته وأنها أخذت تجمع وتلفق بين مختلف الآراء . وكيف صبغت محمد بن إسماعيل نفسه بصبغة الغنوصى . وكيف أخذت طريقها كدعوة مسلحة بالفلسفة اليونانية والغنوصية ، مكونة مزيجاً لا مثيل له فى تاريخ الإسلام الفكرى .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٥ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٧٤ .

(٢) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٨٠ و ٨١ .

أما الإمام عبد الله الرضى ، فقد تتبع الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما الرائع عبيد الله المهدى ميلاد الإمام ورحلاته . ولد فى نيسابور ، وتولى الإمامة الإسماعيلية سنة (١٦٩ هـ) وهو أول الخلفاء عند الإسماعيلية اسمه الحقيقى عبد الرحمن ولكنه تسمى باسم حجته عبد الله بن ميمون إمعاناً فى التخفى ، بل اتخذ أبوه محمد بن إسماعيل له حجباً وحججاً ، وأمر كل واحد من هؤلاء الحجج والحجب أن يتسمى باسم الإمام « فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه ستراً على صاحب الأمر ، ولذلك صعب على الناس التفريق بين الإمام وبين حجته وحجبه ، وقد أدى هذا إلى أن رؤساء الدعوة فى جزرها وبحورها ، أى فى أقاليمها المتعددة كانوا يختلفون فيما بينهم فى ذكر أسماء الأئمة وقد حفظ هذا الأئمة المستورين وجعلهم فى منجاة من يد العباسيين . يقول الداعى إدريس : « وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الحق على الباطل ، ولشدة دولة الظلمة من آل العباس وعظم الريب والوسواس ، وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى الأمر ، ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق » (١) .

وأخذ الإمام عبد الله الرضى أو عبد الله الأكبر ينتقل من بلد إلى بلد فراراً من المأمون ، وكان المأمون يدرك خطر الدعوة الإسماعيلية فأراد أن يقضى عليها ، فقرب إليه الإمام على الرضا وعهد إليه بالخلافه بعده ، وتتبع الإمام عبد الله الرضى فقتل أغلب أسرته وأبنائه ، ولكن الإمام عبد الله تمكن من الوصول سالماً آخر الأمر إلى سلمية بالشام هو وابنه أحمد ، وكانت الدعوة قد نجحت فيها نجاحاً باهراً ، ولكنه بالرغم من هذا عاش هناك مدعياً أنه هاشمى ، ووجد دعاته وحججه مشقة كبرى فى الوصول إليه . ولم يعرف عن الإمام عبد الله علم ظاهر ، أى أنه لم يظهر علمه لأحد ولا اطلع عليه ، ولا عرفه إلا حملة العرش ، القائمون بأمر الله أمناء خليفته وفضلاء حججه المنصوبون فى دعوته ، والمقصود بحملة العرش هنا ، حججه وكبار دعاته .

وفى سلمية نص الإمام عبد الله الرضى على إمامة ابنه أحمد على مشهد من رجال دعوته . ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف حيث توفى بها عام ٢١٢ هـ .

وقام ابنه أحمد بالإمامة من بعده ، وقد أخذ أحمد أيضاً ينتقل من بلد إلى بلد . يقول الداعى نور الدين أحمد المتوفى سنة ٨١٧ هـ إن الإمام أحمد الملقب بأحمد التقى كان كثير التنقل فى البلدان يحب

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٥٩ وانظر أيضاً الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف : عبيدالله المهدى ص ٤٢ .

التبشير بالدعوة بنفسه . فوضع الوكلاء والدعاة بمركز دعوته فى سلمية وسار متنقلاً فى بلاد الشام ، ثم انتقل إلى الرى وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء إلى إستانبول حيث توفى فيها عام ٢٢٩ هـ .

ظهور رسائل إخوان الصفا :

وفى عهد هذا الإمام كانت الحركة العقلية الإسلامية قد بلغت مداها ، وقطعت الترجمة على علوم اليونان شوطاً كبيراً . وكان الخليفة العباسى المأمون وراء هذه الحركة العقلية الكبرى .

وقد اختلفت التفسيرات والتعديلات لهذه الحركة ، وضعت لها الحلول المتناقضة . فالبعض يرى أن المأمون قام بها لأنه كان ملحداً عريقاً ، فنقل علوم اليونان إلى المسلمين . ويذهب الإسماعيلية إلى هذا الرأى . ويقول الداعى إدريس : إن المأمون أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، وليرى الحق الذى جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك ، عملوا بعلى عليه السلام ما عملوا ، وأنهم فى ذلك مصيبون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم فى قتل ذرية النبوة بما قتل من دماء قريش [1] » .

ويذهب البعض الآخر من الباحثين من أمثال بيكر إلى أن السبب فى نقل المأمون لعلوم اليونان هو أن يحارب المأمون الغنوص بفلسفة عقلية ، أراد أن يحطم الفلسفة الباطنية التى كان ينشرها الإسماعيليون بفلسفة تستند على العقل ، فطلب علوم اليونان – وبخاصة الفلسفة لتوقف هذا التيار الغنوصى . ومما يرجح هذا الرأى موقف المأمون وخلفائه من المعتزلة ، فقد احتضنوا المذهب العقلى المعتزلى ، وكانوا أمناء له ، بل جعلوه المذهب الرسمى للدولة . وأياما كان الأمر ، فقد خاض الإمام الإسماعيلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعركة العقلية التى قامت فى عصره ، وإليه ينسب وضع المذهب الإسماعيلى الباطنى ، كما ينسب إليه تأليف رسائل إخوان الصفا المشهورة . ويقول الداعى اليمنى الإسماعيلى إدريس عماد الدين (توفى عام ٨٧٢ هـ) : « وقام الإمام التقى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بعد أبيه بأمر الإمامة ، وبث دعاته فى الآفاق من سلمية ، واتصل به الدعاة ، ودعوا إليه ، وهم مختفون لمقامه كاتمون لاسمه . وكان المأمون حين احتال على على بن موسى الرضا بن جعفر ظن أن أمر الله قد انقطع ، وحجته على الأرض قد ارتفعت ، فحين ظن المأمون العباسى ذلك الظن ، ووهم ذلك الوهم سعى فى تبديل شريعة محمد ﷺ وتغيرها ، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ٦٠-٦١ .

اليونانيين ، وخشى الإمام عليه السلام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألف رسائل إخوان الصفا» .

ويذكر فى موضع آخر أن الإمام أحمد ألف تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة ، ثم إن الإمام أمر أن تبث تلك الرسائل فى المساجد ، فحين وقع عليها الناس ، رفعت إلى المأمون فعلم أنه لم يصنع شيئاً ، وأن إمارته من قطع حبل الإمامة لا يكون (١) .

والدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان فى عهد الإمام أحمد سواء أكانت من وضعه أم بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآناً بعد القرآن ، أو هى قرآن العلم كما أن القرآن هو قرآن الوحى ، أو هى قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة . وتعلق مختلف الدعاة بها ، واعتبروها وحياً «قام الإمام أحمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأمر الله ووحيه وهو الثانى من الخلفاء وحجته عبد الله بن ميمون وأحمد بن عبد الله ممثول النطقة فى دورهم مقابل لنوح ثانى النطقاء ولجده الحسين بن على ثانى الأئمة ، فنشر العلوم ظاهراً وباطناً ، وصنف الرسائل ، وجعلها على العلوم الأربعة (٢)» .

ويذهب الداعى الإسماعيلى شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (توفى سنة ٨٣٤) إلى ما يأتى : «حتى هم المتسمى بالمأمون أن يرد الأمة إلى القول بالنجوم وقال : ما جاء محمد ﷺ إلا بناموس ملك به الناس . وحقيقة وأساس حتى أظهر ولى الله وابن رسول الله «رسائل إخوان الصفا» وفيها ما تميز فيه جميع العالم من العلوم فى كل فن ، والاستشهاد على شريعة الرسول ، ﷺ . إن ذلك وهو فى كهف التقية مستتر ، ودعاته الباقون مفرقون لتلك الرسائل فى كل شهر وقطر . . . فرجع اللعين عما هم به» (٣) .

ولاشك أن رسائل إخوان الصفا هى إسماعيلية ، سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم وضعها أتباعه تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية ، مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلى . وقد جهد الأستاذ عارف تامر الإسماعيلى فى محاولة إثبات هذا الاتجاه ، وتوصل خلال نشراته المتعددة المخطوطات الإسماعيلية إلى أن الرسائل قد وضعت فى عهد الإمام أحمد .

أرادت الإسماعيلية بوضع هذه الرسائل أن تثبت معرفة الأئمة بعلوم باطنية لا يعرفها سواهم ، ويبدو هذا من محاولة هذه الرسائل الإلمام بجميع نواحى الفلسفة الغنوصية من أفلاطونية محدثة وفيثاغورية مختلطة مع العقائد الإسلامية وقد أعلن إخوان الصفا «أن هذه الوصاية المخصوصة لأهل

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن حمزة : الرسالة الموقظة ، وانظر أيضاً عارف تامر . حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء ص١٨ .

بيت الرسالة عليهم السلام ، لا يحتاجون فيها إلى مديرى غيرهم وإلى علماء سواهم ولا يطلع الناس على أسرارهم ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها وأعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم » .

ثم دعوة الناس أن يأتوا باب العلم – وهو الإمام « قيل : يارسول الله من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ فقال نعم ، من قالها مخلصاً دخل الجنة ، قيل له : وما إخلاصها ؟ قال : معرفة حدودها وأداء حقوقها . فقيل يارسول الله : ما معرفة حدودها وأداء حقوقها ؟ فقال : أنا مدينة العلم ، وعلى بابها . فمن أرادها فى المدينة فليأت الباب » .

ثم توضح إخوان الصفا المذهب السبعى ، ودورة السبعة فى الناطقين من الأئمة : أعيادنا أيها الأخ هى أشخاص ناطقة وأنفس فعالة ، تفعل بإذن ربها ما يوحيه إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال » ثم يحدد إخوان الصفا هذه الأعياد أو هذه الأشخاص الناطقة كما يلى :

اليوم الأول : من هذه الأعياد بل أفضل الأعياد هو يوم خروج أول القائمين . ويكون اليوم الموافق لنزول الشمس برج الحمل وهو مجىء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار وهو يوم فرح وسرور .

واليوم الثانى : هو يوم قيام القائم الثانى الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان فى تناهى طول الليل وقصر النهار . وكان تصرم دولة أهل الجور وانقضائها ، وهو أيضاً يوم فرح وسرور وانتشار .

واليوم الثالث : هو يوم قيام القائم الثالث الموافق لنزول الشمس أو الميزان واستواء الليل والنهار ودخول الخريف وهى مقاومة الباطل الحق ، وكون الأمر على خلاف ماكان عليه .

واليوم الرابع : يوم الحزن والكآبة ، يوم الرجوع إلى الكهف ، كهف التقية والاستتار ، « فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه فى وقتنا إلى وقت البروز والخروج بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل [1] .

ونحن نرى أن النطقاء سبعة عند الإسماعيلية ، ستة وأسامَ ، وقد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل ، وقد جمع قوى الأئمة الستة التى قبله ، فهو الأساس ونهاية الدور ، ثم أتى الإمام الثامن ، وهو قائم لأنه الأول فى الدور الجديد ، وانتهى الدور الثانى بالإمام الفاطمى « المعز لدين الله » وهو أيضاً أساس ومتم للدور . ثم أتت الأعياد – العيد الأول بعد الدور الثانى – هو العزيز والعيد الثانى الحاكم بأمر الله ، وأما العيد الرابع فهو يوم الحزن والكآبة – يوم ذهاب الدولة الفاطمية حين توفى الإمام المستنصر ، ووقعت الفتنة ، وذهب الفرح والسرور ، وعاد الأئمة إلى كهف التقية والاستتار [2] .

---

(١) رسائل إخوان الصفاء ج ٤ ص ٢٤٤ .

(٢) عارف تامر : ص ٢٢ .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيلى بحت ، وكان يتخذ أداة لنشر الدعوة الإسماعيلية . ولن نعرض هنا لمحتويات رسائل إخوان الصفا الفلسفى . بل سنفعل هذا فى الجزء الرابع من كتابنا هذا الذى سيفحص نشأة الفلسفة بالمعنى اليونانى أو الغنوصى عند المسلمين ، ولكن ما أود أن أقوله الآن هو أن فلسفة هذه الرسائل ليست فلسفة إسلامية أصيلة ، إنما هى محاولة لمزج العقائد الإسلامية بغنوص أفلوطين ثم بغنوص الفيثاغورية المحدثة ، مع عملية توفيق . ليست فى هذه الوسائل أصالة فكرية تعبر عن فلسفة المجتمع الإسلامى ، كما تعبر عنها فلسفة أهل السنة والجماعة والمعتزلة والشيعة الإمامية والاثنى عشرية . إنها بلا شك محاولة فلسفية منسقة ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامى وليست فيها أصالة ولا جدة .

ولكن السؤال الهام هو من الذى كتب الرسائل ، الإمام أم جماعة من حججه ؟ يذهب الداعى السورى الإسماعيلى نور الدين أحمد إلى أن الإمام أحمد هو الذى شرع فى كتابة هذه الرسائل ، ثم طلب من حرمه – ومعنى الحرم فى التعريف الإسماعيلى الدعاة الأربعة الذين يرافقون الإمام . ويسمون الأبدال – وأمرهم بأن يكتبوا – كل من ناحيته ما عنده من علوم باطنية ، وأن يرسلها إليه . يقول زهر الدين : «ولما علم – أى الإمام – بما آلت إليه الشريعة فى العباسيين من الانحطاط والضعف ، شرع بتأليف كتاب «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» وهو كتاب وضعه لتأييد الشريعة والحقيقة معاً ، وقد أمر حدوده الأربعة الحرم (ويسمى هؤلاء كما قلنا الأبدال ، وأفضلهم يسمى الباب) وكان مقرهم فى سلمية وهم أقرب الحدود إليه – أن يكتبوا ما ينصه عليهم ، ويصل منه إليهم ، فأخذ كل واحد بكتابة ما يشير به عليه من العلوم ، أو يرسله إليه إذا كان غائباً فى مكان بعيد ، حتى جاء عدد رسائل الكتاب مطابقاً لعدد ركعات صلوات الفريضة والسنة والنوافل» .

واضح إذن من هذا المصدر الإسماعيلى أن الإمام كلف أبداله الأربعة بكتابة هذه الرسائل ، وكانت ترسل إليه ، فيراجعها . ولكن من هم هؤلاء الأبدال الأربعة ؟ يقول الداعى ابن زهرة : «فلما انتقل محمد بن إسماعيل إلى دار البقاء تسلمها ولده المستور . وهو أول من ستر نفسه عن الأضداد من أهل عصره المخالفين ، لأن زمانه كان زمان فترة ومحنة ، وكان المتغلبون من ولد بنى العباس يطلبون من يشار إليهم حسداً وبغضاً لأولياء الله تعالى ، فأوجب ذلك الاستتار المعروف للأئمة ، وكنيت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه ويليق بهم ، وتاهت فيهم أولو الضلال ، حتى قالوا إن الإمام من ولد محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون المعروف بقداح الحكمة وزيد الهداية . وزعم البعض أنه عبد الله بن المبارك أو عبد الله بن سعيد بن الحسن أو عبد الله بن حمدان ، وأن هؤلاء الأربعة قد

اجتمعوا مع غيرهم ، وصنفوا رسائل طويلة فى شتى العلوم والفنون وعددها اثنان وخمسون رسالة» (١)هؤلاء هم الدعاة الذين صنفوا رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا لتكون سلاحاً بين يدى الإسماعيلية يحاربون به العباسية .

عبد الله بن ميمون القداح :

ونحن نلحظ أن اسم عبد الله بن ميمون القداح يظهر هنا ، واحداً من الحرم ، وهو أفضلهم فهو الباب ، باب مدينة العلم ، علم الإمام ، كعلى للرسول . وعبد الله بن القداح الأول – ميمون – شخصية من أغمض شخصيات التاريخ الإسلامى كوالده . اختلط أيضاً اسمه وزمانه باسم والده وزمانه ، فهو خادم أيضاً للباقر وللصادق وراوية الحديث لهذا الأخير . واختلط اسمه بمحمد بن إسماعيل ، فهو هو محمد بن إسماعيل عند البعض ، وهو منتحل لشخصيته . واختلط اسمه بالإمام عبد الله الرضى ، فهو هو عبد الله الرضى أو هو منتحل لشخصيته .

أما أهل السنة والجماعة ، وروايتهم ينبغى أن تؤخذ بحذر فأول رواية لهم عنه ، يقدمها لنا ابن النديم فى الفهرست عن أبى عبد الله بن رزام أقدم مؤلف سنى كتب كتاباً فى الرد على الإسماعيلية وكشف مذاهبهم ويورد نصوص ابن رزام ويبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه وأما هذه النصوص فهى : «إن عبد الله بن ميمون ويعرف بميمون القداح ، وكان من أهل قوزح العباس بقرب مدينة الأهواز – وأبوه ميمون الذى ينسب إليه الفرقة الميمونية التى أظهرت أتباع أبى الخطاب محمد بن زينب الأسدى الذى دعا إلى إلهية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ميمون وابنه ديصانيين وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضى إلى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث الكائنة فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونون على نواميسه ، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيت عبد الله ، فيخبر من حضره بما يكون ، فيتموه ذلك عليهم» (٢) .

هذه هى أقدم رواية من كاتب سنى عن عبد الله بن ميمون القداح . ثم أخذها البغدادى صاحب الفرق بين الفرق ، وذكرها – ولكنه يخلط بين عبد الله وأبيه ميمون . يقول : «إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم : ميمون بن ديصان المعروف بالقداح . وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق . وكان من الأهواز ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان فى

(١) الداعى ابن زهرة : رسالة الأصول والأحكام فى خمس رسائل إسماعيلية ص ١٢١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٨ .

سجن والى العراق ، فأسسوا فى ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان ، وابتدأ بالدعوة فى ناحية تور ، فدخل فى دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين ، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب ، وانتسب فى تلك الناحية إلى عقيل بن أبى طالب وزعم أنه من نسله ، فلما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ، ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب(١) » .

انتشرت رواية ابن رزام ، ثم البغدادى ، كما ردد الكثير من هذا الغزالى . نحن أمام رواية تمثل لنا الرجل على أنه ديصانى ثنوى ، شعوبى خطير ، مزور مغتصب ، مؤسس لمذهب باطنى يحاول به هدم الإسلام مع مجموعة من موالى العجم . وأنه – كما فعل أبوه من قبل – اتخذ التشيع ، فى صورة شاذة لا صورة معتدلة ستاراً يخفى به عداوته الضارية للإسلام .

وقد أورد النويرى فى نهاية الأرب أن الرجل كان ضاغناً حتى على العلويين أنفسهم بحيث كان يقول لدعاته « ولا ترحم علوياً ، فلو تمكن علوى كتمكين غيره من الأنبياء للقينا منه جهداً ، وغيره بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الحمير بما هو أكثر مما غيره جده وإياك والإغضاء عمن تجده من ولد على : يعنى اقتله إذا تمكنت من قتله » .

بل يذكر مؤرخو السنة أن عبد الله بن ميمون انقلب على المذهب الإسماعيلى نفسه والشاهد على هذا ما يذكره أبو العلاء المعرى من أن عبد الله كان يقول :

هات اسقنى الخمرة يا قنبر ... فليس عندى أننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة ... يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغروراً به برهة ... ثم بدا لى خبر يستر

وأنه كان يقول :

مشيت إلى جعفر برهة ... فألفيته خادعاً يخلب
يجر العلاء إلى نفسه ... وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقاً ... لما ظل مقتولكم يسحب
ولا عض منكم عتيق ولا ... سما عمر فوقكم يخطب(١)

ومن العجب أن يأتى الذهبى فى ميزان الاعتدال – وهو من كتب نقد الرجال فيذكر عبد الله بن ميمون القداح المكى ، وأنه كان مولى لجعفر الصادق – وأنه كان محدثاً موثوقاً به فى كثير من روايات

(١) البغدادى : الفرق ص ١٩٦ .
(٢) المعرى : رسالة الغفران ص ١٥٦ .

الحديث . ويذكر الذهبي أسماء بعض من رووا عنه الحديث (١) فهل حدث هذا فى حياة جعفر وقبل أن يتحول الرجل من عقيدته الإمامية إلى الإسماعيلية ؟ وأبو العلاء نفسه يذكر أنه كان محدثاً إماميًّا فى أول حياته ثم انقلب غالياً .

ويقابل هذا روايات الشيعة : اثنى عشرية وإسماعيلية .

أما الروايات الإمامية فتجمع على أنه كان من موالى جعفر الصادق ومن محدثيه . كما ذكروا أنه صنف كتابين هما مبعث النبوة ، وصفات الجنة والنار وأنه كان محدثاً اثنى عشريًّا ، ومات على ولاء لموسى الكاظم وهذه الأخبار كما قلت – تنطبق على ميمون أيضاً ، بل إن القول بأنه – أى ميمون وابنه عبد الله – كانا على ولاء ووفاء لموسى الكاظم لا يقدح إطلاقاً فى ولايتهما للإمام محمد بن إسماعيل فلا شك أن ميموناً كان من خواص جعفر الصادق ، وقد أحبه وأحب أبناءه جميعاً . ولكنه اختص بإسماعيل وأولاده . ونستخلص من هذا أن الروايات الإمامية الاثنى عشرية لا يمدنا بشىء واضح عن عبد الله بن ميمون ، اللهم إلا مصدراً واحداً – هو تبصرة العوام الذى يذكر أن عبد الله بن ميمون غتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل ثم دعا لابنه لا لنفسه » وهذا هو النص الذى أورده الدكتور حسن إبراهيم ولم يتنبه إلى أهميته . إنه الدليل القاطع على أنه كان لمحمد بن إسماعيل عقب وذرية . أما اغتصاب عبد الله بن ميمون للإمامة منهم ، فإنه موضع نظر . إنه – كحجة الإمام – تسمى باسم الإمام ، حتى يحافظ على سلامته ويجعله فى مأمن كامل فى كهف الاستتار .

إن هذه النصوص والروايات تقربنا إلى حد ما من الحقيقة . إنه ابن ميمون القداح ، أو هو القداح الثانى ، ورث القداحة عن أبيه ، وكان راوية لجعفر الصادق ولم يكن حجة لمحمد بن إسماعيل ، ولم يتخذه أبوه ميمون بديلاً لابن محمد بن إسماعيل حين مات هذا الأخير ، بل سلمه أبوه أمانة الدعوة بعد أن بقى الأب حجة مدة قصيرة لعبد الله الرضى . فلما مات الأب ، ورث الابن رتبة حجة الإمام ، وكان أحد الدعاة الحرم الأربع ، وكان باب الإمام . وسار بالدعوة سيراً حثيثاً ، مستخدماً كل أداة يراها ، وكل مجموعة يقابلها .

لا شك أن الشعوبية والمجوسية كانت تطل برأسها . يقول ابن رزام « قد كان قبل بنى القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها ، ويجتهد لردها فى أوقات ، منها بالمجاهرة ومنها بالحيلة سرًّا . فأحدثوا ذلك فى الإسلام حوادث منكرة » ويرى ابن رزام أن أبا مسلم الخراسانى رام ذلك وعمل عليه ، فاخترم ذلك ، وأظهر وكاشف بابك الخرمى .

وفى خلال دعوة عبد الله بن ميمون ، ومحاولاته المستميتة فى جذب أية مجموعة من الناس للبيعة

---

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٨١ .

لإمامه قابل الشعوبى الخطير الثرى محمد بن الحسين كاتب أبى دلف والمشهور بدندان . وكان هذا الرجل فيما يذكر ابن رزام – متفلسفاً حاذقاً بعلم النجوم شعوبيًّا شديد الغيظ من دولة الإسلام» ويذكر ابن رزام مذهبه وهو إثبات النفس والعقل والزمان والمكان والهيولى – أى مذهب القدماء الخمسة – وقد نسب هذا المذهب إلى الصابئة الحرنانية ، وهو فى الحقيقة مذهب أفلاطون ، كان يدين به أيضاً محمد بن زكريا الرازى . وكان دندان يرى أن للكواكب تدابير روحانية ، وأنه وجد فى الحكم النجومى انتقال دولة الإسلام إلى دولة الفرس ودينهم المجوسية وكان يرجو أن يكون رجل الفرس [١] ، فلما قابل عبد الله بن ميمون أراد كلا الرجلين استخدام الآخر ، هذا للمجوس ، وذاك للإسماعيلية ، فأعطى عبد الله بن ميمون مليونى دينار . ولكنه ما لبث أن مات ، وسار عبد الله بن ميمون بدعوته . ولكن ماسينيون وبرنارد لويس أثبتا تهافت هذه القصة . فإن محمد بن الحسين الملقب دندان قد توفى حوالى عام ٢٥٠ هـ . فلا يمكن إطلاقاً أن يتصور معاصرته أو مقابلته لعبد الله بن ميمون . ويرى ماسينيون أن دندان هذا كان من الموالين للحركة الإسماعيلية ولكنه لم يكن أبداً من أصحاب عبد الله [٢].

ورأى عبد الله بن ميمون العباسيين يتتبعونه ، وبعد رحلات متعددة عاد إلى سلميه يعيش فى حمى الإمام المستور أحمد بن عبد الله حتى مات فى عهد هذا الإمام .

كان العمل الأكبر الذى قام به عبد الله بن ميمون هو الدعوة للإمام الإسماعيلى وكان أجل دعاته ولذلك حظى – كما قلنا – برتبة الباب . ولكن هل وضع عبد الله بن ميمون أصول المذهب . لقد رأينا من قبل أنه شارك فى وضع رسائل إخوان الصفا ، ولكنه لم يكن منفرداً ، بل شاركه ثلاثة آخرون . وتم العمل تحت إشراف الإمام أحمد ، بحيث نسب إليه عند الكثيرين من المؤرخين . وكذلك يبدو لى أن أساليب الدعوة نفسها كانت عملاً مشتركاً أيضاً ، وكذلك تكوين العقائد الإسماعيلية نفسها التى يدعى إليها . وإذا كان للقداح الجانب الأكبر فلم يكن الأئمة سلبيين إطلاقاً ، بل كان الإمام أحمد خاصة هو اليد المحركة للدعوة ولوضع الأفكار الإسماعيلية . أما القول بأن عبد الله بن ميمون القداح قد وضع أساليب الدعوة فى يده ، ثم رسم العقيدة الإسماعيلية بنفسه ، وأنه فعل كل هذا لكى يضع الدعوة فى يده ثم يتولى الإمامة هو وأولاده فلا ظل له من الحقيقة . إن الرجل وأباه من قبل وأولاده من بعده كانوا مخلصين للبيت الإسماعيلى أعظم إخلاص ، تفانوا فى حب إسماعيل وأولاده ونرى «أخو محسن» – وهو عدو للإسماعيلية وللبيت القداحى – وقد اتهم عبد الله بن ميمون بأشد التهم ، واعتبره خارجاً مارقاً على الإسلام ، إلا أنه كان يؤكد دائماً ، أنه كان مخلصاً لأئمة الإسماعيليين .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٥٨ – ١٥٩ .

انتشر عبد الله بن ميمون ورجاله – يدعون إلى الإمام الإسماعيلى ، والإمام فى «كهف الستر» لا يعلم اسمه إلا الأقربون الدعاة الحرم الأربعة والإمام «حى» «موجود» فى انتظار التفاف المسلمين حوله لكى يظهر من دور الاختفاء ليملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملأها الظلمة من آل أمية وآل عباس جوراً وفجراً . والإمام المستورد من «آل محمد» أنوار البرية ونجومها ، نجوم السموات ، وأمان أهل الأرض .

ووجد عبد الله بن ميمون الحقل المريع الغالى . من أنصار أبى الخطاب الأسدى ثم المنصورية : أتباع الحسين بن أبى منصور العجلى ، ثم الكيسانية وفروعها . ثم الأبى مسلمية ، وبقايا الثورة المقنعية ، كانت الفلول الضاغنة الحاقدة تتلمس قيادة جديدة ونقطة ارتكاز جديدة ، تنقض بها على عدوها الحاكم ، ثم قام بابك الخرمى بأعنف الثورات فى تاريخ الإسلام ، وقضى بعد عناء على ثورته . وقد عاصر عبد الله بن ميمون كل هذه الحركات وقد تخلف عنها اتجاه جديد هو الاتجاه الشعوبى وفى سهولة نادرة وبعين حذرة وضع عبد الله بن ميمون يده فى أيدى هؤلاء الشعوبيين المتلمسين الفرص ، أى فرصة كانت للقضاء على العرب والإسلام جميعاً . واتخذ المذهب الإسماعيلى «التصوف» ستاراً له فكان الدعاة يتسترون بالزهد وبالتقشف ويظهرون فى صورة الصوفى الغارق فى تأملاته . ومن الصعوبة بمكان تحديد الأثر والمؤثر هنا . هل أثر التصوف فى الإسماعيلية ، فاستمد الدعاة منه بعض أساليبه . أم أثرت الإسماعيلية فى التصوف فحاكاها وأخذ منها مصطلحاتها ؟ وما زال الباحثون حتى الآن وراء الآثار الإسماعيلية فى فلسفة ذى النون المصرى . أو الحسين بن منصور الحلاج . إنه من الثابت أن دعاة الإسماعيلية – وعلى رأسهم عبد الله بن ميمون – قد استخدموا التصوف الفلسفى كأداة فى دعوتهم .

وكان السحر والشعوذة والنيرنجات منتشرة فى أوساط الغلاة ، فكان على الدعاية أيضاً إتقانها واستخدامها ، حتى يموهوا على عوام الناس كما استخدموا أيضاً الحيل الهندسية . وما لا يسبر غوره الجماهير الغافلة . استخدم الدعاة كل شىء كان فى متناولهم حتى الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الجزء الخاص منها بالأسرار فلسفة أفلوطين وفلسفة الفيثاغورية الحديثة . بل استخدم الدعاة الإسماعيليون المذهب المعتزلى ، فدخل أيضاً فى أعماق المذهب الإسماعيلى مزيج غريب من الآراء والمعتقدات أراد به الدعاة أن يشبعوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذى حاولوا جذبه إلى موالاة الإمام الإسماعيلى . وقد حدث هذا كله فى سرية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . وقد دعا هذا إلى تعدد أسماء المذهب الإسماعيلى ، فهو المذهب الباطنى ، وهو الخرمية وهو السبعية ، وهو الفارسية القديمة ، وهو الغلو الشيعى ، وهو الخطابية والمباركية . وهو فعلاً مزيج من هذا أو بمعنى أدق كان هو كذلك فى دور الاستتار فلما ظهر الإمام ، فى مغرب الأرض باسم عبيد الله المهدى . قدم للناس مذهباً إسماعيليًّا فقط ، أى موالاة الإمام الإسماعيلى باسم الإسلام .

ولقد استند المذهب فى دور الستر – كما استند فى دور الظهور – على التأويل الباطنى للقرآن . أعلنت الإسماعيلية أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الأخذ بالظاهر فقط دون الباطن ، خروج على روح الإسلام . وبهذا المنهج استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقاً لما يريدون . فالسموات السبع والأرضون السبع إشارة إلى الأئمة السبعة ، والمدبرات أمراً – ليست هى الكوكب والنجوم ، وإنما هى إشارة إلى الأئمة . وقول الله « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » هى « جعل صفوة الصفوة من العالمين الجسمانى النطقاء السبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم صلوات الله عليه وجعلهم أصحاب شرائع وأحكام وحلال وحرام ، ثم جعل بين هؤلاء النطقاء الستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثلاثين نبيًّا مرسلين ومبشرين ومنذرين ، ما شرعوا شريعة ولا حولوا قبلة ولا بدلوا أحكاماً ، غير أنهم متبعون لما جاء به النطقاء صلوات الله عليهم ، وعلى الأئمة من ذريتهم » ثم جعل الإسماعيليون بين الناطق السادس وبين القائم السابع – أى محمد بن إسماعيل – أئمة ظاهرين – هم على والحسن والحسين وعلى ومحمد وجعفر ، وإسماعيل . وهؤلاء لم يغيروا ولم يبدلوا شريعة وهم يشبهون النطقاء الخمسة قبل محمد ﷺ . وقد قال القرآن : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » ، فقال النبى ﷺ : « لم يؤتهن أحد قبلى ، ثم جعل منها الأنبياء والأئمة فى كل عصر وزمان أربعاً وعشرين حجة ظاهرة ومثلها اثنتا عشرة حجة باطنة ، ثم مراتب الإيمان وهى المؤمن والمحرم والمأذون والمباح والحجة ، فذلك تسعة وتسعون حدًّا – عدة تفسير أسماء الله الحسنى [1] » هكذا فسر الإسماعيلية أسماء الله الحسنى ومن عرف هذه الأسماء الحسنى أى من عرف الأنبياء الناطقين والأئمة الناطقين رفع عنه التكليف – وهذا ما لم ينادبه الإسماعيلية ، ولكنهم غضوا البصر عنه وهم فى دور الستر ، جذباً للأتباع ، وقد أدى إلى أفظع النتائج.

العقيدة الإسماعيلية فى دورها الباطنى :

لم تسبغ الإسماعيلية الألوهية أبداً على الأئمة لقد حارب الإسماعيليون الغلاة الذين ألهوا أو اعتبروا الإمام إلهاً وأعلنوا أن الأئمة عباد مخلوقين . وكائنات مربوبة ، خلقوا من الطين ولكنهم من طينة أسمى من البشر . واختارهم الله اختياراً أزليًّا ، حجة على الخلائق .

ثم استخدموا فى الدور السرى فكرة العقول الأفلوطينية المحدثة فى براعة نادرة حتى يحققوا فكرة السبعة . فرأوا أنه يتحكم فى الكون دائماً سباع أى سبعة من الناطقين : آدم ونوح وموسى وعيسى ومحمد وعلى وينتهى الدور بالقائم محمد بن إسماعيل . هؤلاء السبعة هم السبعة الناطقون الذين تجلى

---

(١) القاضى النعمان : (فى خمس رسائل إسماعيلية) ص ٣٧ .

فيهم العقل الكلى الموجود ولم يخل العالم فى فتراته المختلفة بين كل ناطق وناطق من موجودات أو كائنات ، تقوم مقام الناطقين ، وتملأ تلك الفترات ، وفيهم أيضاً أعظم مظاهر تجلى العقل الكلى فى نظام بديع وتسلسل فذ . وكل قائم من هؤلاء القائمين يفيض عليه ما فاض على من سبقه ، فهو المظهر الأكمل لكل رسالة سبقته أو نبوة أو علم . وكل ناطق يحمل ما حمله من قبله من ناطقين وقائمين حتى يصل إلى أكمل الصور الكونية . وانتهت دائرة الناطقين الأولين بمحمد بن إسماعيل ، انتهى دور هؤلاء السبعة ، ليبدأ دور السبعة المستورين ، وهكذا دواليك .

لم يعلن الإسماعيليون أبداً أن محمد بن إسماعيل نبى أو أنه أتى بدين جديد ينسخ به الشريعة المحمدية . ولكنهم أعلنوا أنه الولى القائم الذى أتى ليفسر القرآن باطنيًا ، أتى بالتأويل . أما دوائر أهل السنة والجماعة فترى أن الإسماعيلية تصل إلى أفظع النتائج التى يمكن أن ترتبها على فكرة الفيض . الفيض دائم وباق ومستمر ، ودائرته لم تغلق على الإطلاق ، وفى لغة دينية بسيطة لم يكن محمد ﷺ فى المذهب الإسماعيلى خاتم النبيين ولا آخر من يمثل اكتمال الوحى الإلهى – كما يعلن أهل السنة والجماعة . وبهذا رأوا أن الإسماعيلية فى صورتها الفلسفية قد ابتعدت عن الإسلام ابتعاداً كليًا وانتهت إلى مذهب فى المعرفة يتصل بالغنوصيات المتعددة المنتشرة فى العالم الإسلامى وبخاصة غنوص الأفلاطونية المحدثة . ولذلك نرى أهل السنة والجماعة يعتبرون الإسماعيلية من المذاهب الخارجة عن الإسلام ، ويعرضونها تحت اسم الباطنية – فيرى الشهرستانى[1] أنهم فى الحقيقة قرامطة ومزدكية فى العراق ، وبخراسان التعليمية والملحدة وهم يقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وبهذا الشخص .

وقد قلت من قبل إن الإسماعيلية ليست مزدكية على الإطلاق وليست ثانوية وإنما هى مذهب فلسفى أخذ يتضخم شيئاً فشيئاً ، مبتعداً عن روح الإسلام السنى وعن روح الإسلام الاثنى عشرى ، وقد عرضنا صوراً منه وسنعرض الآن لتطوره فى صورة أكثر فلسفة ، ويعتبر الشهرستانى هذه الصورة هى صورة الباطنية القديمة : وهى هى الإسماعيلية فى صورة أكثر عمقاً . لقد تنبه الشهرستانى إلى تطور المذهب الإسماعيلى وأخذ بصور متعددة فقال «وكانت لهم دعوة فى كل زمان ومكان جديدة بكل لسان[2]» .

ذهبت الباطنية القديمة ، إلى أنه لا يمكن أن تخلو الأرض من إمام حى قاهر ، وهذا الإمام إما أن يكون ظاهراً مكشوفاً ، وإما باطناً مستوراً ، وإذا كان الإمام مستوراً ، فلابد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

وتدور أحكام الأئمة عند الباطنة على سبعة : أى أن أدوار الإمامة سبع ، وأن السابع هو آخر الدور ، والدور الأول انقضى بإسماعيل بن جعفر وابتدأ الدور الثانى بمحمد بن إسماعيل . والدور يتم بسبعة بعد الناطق – وهو الرسول محمد ﷺ . ويبتدئ بالأساس وأساس الناطق هو الوصى على بن أبى طالب ، ثم من القائمين بعد الأساس ، فمتى انقضى هذا الدور تلاه دور آخر فيه ناطق ناسخ لشريعة من قبله وأساس ، يتلوهم أئمة ، ثم كذلك إلى ما لا انقضاء له ولا نهاية .

أما عدد النقباء فاثنا عشر . وقد أخطأت الإمامية القطعية – أى الاثنا عشرية – حيث قرروا عدد النقباء للأئمة . وهنا خلاف بين مع الإمامية الاثنى عشرية . ثم يقررون «إن من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية ، وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية .

أما نظريتهم فى الألوهية فهى نظرية كلامية تثبت تمام الإثبات أن الإسماعيلية تؤمن بوجود إله واحد على طريقة إسلامية ، وقد نقل إلينا تقى الدين بن تيمية طريقتهم فى التدليل على وجود الله وموقفهم من الصفات عن كتاب مفقود اسمه الأقاليد الملكوتية لأبى سليمان السجستانى المعروف بالمنطقى ، وقد اعتبره إسماعيليًا وقرمطيًا . ثم ظهرت المخطوطات الإسماعيلية التى نشرت حديثاً . وفيها أيضاً نفس الفكرة فى نظرية الصفات التى عرضها ابن تيمية عن السجستانى . وقد حاولت الإسماعيلية أن تنزه الله عن النفى والإثبات . وقد كان منهج الباقر ، ثم منهج الصادق بعده . وهاكم ملخص فكرة الإسماعيلية فى هذا الدور الناضج من أدوار حياتها .

الله واحد قدير عالم . . . إلى آخر تلك الصفات . هو لا موجود ولالا موجود لا عالم ولا جاهل ، لا قادر ولا عاجز ، وفكرتهم فى ذلك أن الإثبات الحقيقى يقضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقت الصفة فيها عليه ، وهذا تشبيه عند الباطنية ، أنهم نزهوا الذات الإلهية عن الحكم بالإثبات المطلق ، كما أن النفى إنما هو سلب صفات عن الله ، ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب ، أى لا يجوز أن يحكم عليه بالنفى المطلق ، فهو إله المتقابلين وخالق الخصمين والحاكم بين المتضادين ، أو بمعنى أدق تعلو الذات الإلهية عن كل صفة وعن سلب هذه الصفة ، أو تعلو عنها سلباً وإيجاباً ، أى نفياً وإثباتاً [1] .

حاول ابن تيمية أن يعلل المسألة تعليلاً منطقيًا طريفاً ، وهو ينقل إلينا نصوصاً على جانب كبير من الأهمية من هذا الكتاب : الله لا يوصف بالنفى ولا بالإثبات ، فهو لا ! ولالا ! ، فإذا رجعنا إلى القانون المنطقى البديهى ، قانون عدم التناقض نجد أن أبا سليمان السجستانى الباطنى قد تنكب هذا الطريق ، ومجاحدة البديهيات أمر لا يستسيغه عقل إنسانى .

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ص ٧ و ٢١ .

وكأن أبا سليمان السجستانى لديه الرد الكامل على ابن تيمية إذ ذكر «إننا لم نجمع بين متناقضين بل رفعناهما [١]» . وثمة فرق بين الجمع المتناقضين وبين رفعهما ، إن كان الأول غير ممكن عقلاً وفعلاً ، ويبدو أن أبا سليمان السجستانى ، وقد فهم ابن تيمية هذا أيضاً ، غالط ، أو لم يفهم الأمر ، فقد كان من قوانين اليونان التى عرفها المسلمون أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فقانون الثالث المرفوع قانون منطقى ، لا شك فى ذلك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن قانون الثالث المرفوع هو الصيغة الشرطية لقانون عدم التناقض ، وعلى أى حال نجد الباطنية فى فكرتهم عن الصفات الإلهية قد خرجوا خروجاً واضحاً على قانون من بديهيات المنطق الأرسطاليسى ، ويدل هذا على عبقرية عقلية ناضجة وقد شعروا بهذا الخروج ، وهذا دليل واضح على أن الخروج على تلك القوانين فى العالم الإسلامى كان أمراً مستساغاً ، ونحن نرى هذا الخروج عند المعتزلة ، وعند مفكرى أهل السنة والجماعة كإمام الحرمين وأبى بكر الباقلانى فى مبحث الحال المشهور – صفات الله هى صفات وراء الذات لا موجودة ولا معدومة .

المهم أننا نرى مفكراً كابن تيمية ، وهو يتلمس جميع الحجج لمهاجمة الباطنية ، يلجأ إلى المنطق اليونانى وهو عدوه الأكبر فيعرض عليه منهاجاً باطناً فى الاستدلال ويبين تهافته تهافتاً تامًّا ، وإذا ما هاجم طائفة أخرى من طوائف المسلمين فى خروجها على هذا المبدأ ، أعلن أنهم يتشبهون بالباطنية فى هجماتهم على بديهيات المنطق الأرسطاليسى .

أما كيفية نسبة صفة من الصفات إلى الله فيتخلص منها الباطنية بتحليل لطيف نسبوه إلى الإمام محمد بن على الباقر : لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة . ولذلك هاجمهم أهل السنة والجماعة بأنهم نفاة للصفة الحقيقية ، وبأنهم معطلة لذاته عن جميع صفاته . وقد تناول نفيهم صفة القدم ، فقالوا : إنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته [٢] .

كيف أبدع الخلق ؟ هنا نجد الباطنية يتجهون إلى الأفلاطونية المحدثة يلتمسون منها أساساً لفكرتهم ، أبدع الله أول الأمر العقل الأول ، والعقل الأول تام بالفعل ، ثم بتوسط هذا العقل أبدع النفس ، والنفس غير تامة ، ونسبة العقل إلى النفس نسبة النطفة إلى تمام الخلقة . ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، والحركة تحتاج إلى وسيلة ، فوجدت وسيلة ، أوحدثت ، وهى الأفلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس .

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ص ٧–٢١ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

نتزل درجة فى سلم الموجودات ، فحدثت الطبائع البسيطة بعد حدوث الأفلاك ، وتحركت هذه الطبائع بفعل النفس فتركبت عن تلك الحركة المركبات من المعادن ، والنبات والحيوان والإنسان ، والحركة فيما نعلم كثرة وتعدد ، وفاضت من النفس نفوس جزئية سرعان ما اتصلت بالأبدان ، وهنا كان نوع الإنسان وحده متميزاً بالاستعداد لفيض الأنوار العليا عليه ، لأن مادته من مادة النفس العاشقة التى تتجه نحو المعشوق بحركات مختلفة تتفاوت كمالاً ونقصاً ، ولابد أن يكون فى هذا العالم الأرضى ما يقابل نظام العالم الكلى الكونى .

ينبغى أن يكون ثمة عقل ونفس ، أما العقل فهو عقل شخص هوكل ، أما حكم هذا الشخص إذا ما حاولنا أن نضعه فى لغة أرضية نفهمها فهو حكم الشخص الكامل البالغ ، هو الناطق ، وأسماه أهل الشريعة النبى ، أما النفس فهى نفس مشخصة ، هى كل أيضاً ، حكمها هو حكم الطفل الناقص الذى يصبو إلى الكمال ، أو حكم النطفة التى تتجه إلى النضج والتمام ، وأسماه الباطنية الأساس ، وهو ما يقابل عند جمهور الشيعة الوصى ، فالناطق إذن ، والأساس فى العالم الأرضى ، يقابلان العقل والنفس فى العالم العلوى ، وإذا كانت الأفلاك والطبائع تحركت بحركة من النفس ، وبالتالى من العقل كذلك تحركت النفوس الجزئية وأشخاصها الجسمانية بفعل الناطق والوصى بواسطة الشرائع فى آنات معينة دائرة على سبعة سبعة حتى تنتهى إلى الدور الأخير ، وفيه ، أى فى الدور السابع من الأدوار . ترتفع التكاليف ، لا سنة ولا شريعة ولا قانون ، إنما يطل زمان القيامة بأشراطه ، وفى هذا الدور الأخير تعود النفس الجزئية بواسطة الشرائع التى أظهرتها ، ثم انحلت عنها ، حالما قاربت الكمال ، تعود مرة أخرى إلى النفس الكلية ، كذلك هذه الحركات الفلكية الطبيعية تعود كثرتها بعد إلى الوحدة ، كانت غايتها بلوغ النفس إلى حال كمالها بحركة شوق إلى الاتصال بالعقل واتحادها به ووصولها إلى أعلى مرتبة كونية إلى العقل بالفعل ، فإذا ما أتمت الحركات الفلكية دوراتها السبعة الأخيرة وقام آخر ناطق ، وآخر وصى ، بتحريك النفوس حركتها الأخيرة ، عادت النفس عقلاً بالفعل ، وذلك هو القيامة الكبرى فتنحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات ، وتتناثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السماء كطى السجل للكتاب المرقوم فيه » . هنا يبدأ الحساب ، ويتميز الخير من الشر وتتصل جزئيات الحق بالفعل الكلى ، وجزئيات الباطل بالشيطان المبطل [1] .

وتعود الحركة سكوناً ، وتعود الكثرة وحدة ، ولم يعد إلا العقل الفعال يتأمل ذاته فى نعيم أبدى سرمدى ، وهنا الكمال « من وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال » [2] .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٨ .

تلك هى الصورة التى قدمها لنا مفكر أشعرى عن النظرية الإسماعيلية فى النظام الكونى . وسنقدم الآن للقارئ صورة من التراث الإسماعيلى نفسه – وهى صورة يرسمها لنا الداعى الإسماعيلى حاتم بن عمران بن زهرة المتوفى عام ٤٩٧ هـ فى رسالة الأصول والأحكام وأبو يعقوب السجزى فى رسالته تحفة المستجيبين .

«كان الله ولا شيء» وهذا الأصل مأخوذ من الحديث كان الله ولا شيء معه – ثم أوجد الموجود الأول وقد سمى أولاً ، لأنه الأولية التى ظهرت منها الموجودات ، لأن كل أيس أى كل جوهر فهو مطبوع عليه وهو عند الحكماء العقل . يقول السجزى «العقل هو أول خلق ظهر من أمر الله . . .» ولم يوجد الله فى أول الخلقة غير العقل وحصر فى جوهره صور المبدعات كلها ، كى لا يذهب شيء منها[1] .

وتستند الإسماعيلية هنا على الحديث الفلسفى «أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل ، فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر . . . إلخ» وهذا الموجود الأول ويسمى العقل أحياناً بالقلم ، لأن بالقلم تظهر نقوش الخلقة من الابتداء إلى الانتهاء – من العقل ينفطر التأييد فى النفوس الزكية ، ومن القلم تنفطر الحروف الجامعة للكلام . ويسمى العقل أيضاً بالعرش ، ومعناه «أن إقرار معرفة التوحيد ، هو ما يتقرر فى العقل من الإثبات والنفى . وبالعقل تعرف جلالة الله وعظمته عن سمات بريته ، كذلك العرش ، هو مقر لمن جلس عليه ، وبجلوسه عليه تعرف جلالته عن من هو منحط دونه ، ويقال للعقل السابق . ومعناه أن العقل أسبق لقبول آثار الكلمة قبل سائر الحدود لقربه منها ، واتحادها به . وهى ، والعلم والأمر – اللذان هما بمعنى واحد قد يجوز أن العقل فعله سبق قوته . ولم توجد هذه الفضيلة فى أنسى سواه لأن جميع الحدود من دونه تسبق قواتهم أفعالهم ، أما العقل وحده ، هو الذى يسبق فعله – كما قلنا قوته . وهذه خاصية للعقل وحده ليكون بها تامًّا كاملاً . ويستند الإسماعيلية هنا على مبدأ أرسطاليس : وهو أن من تسبق قوته فعله لا يكمل إلا بخروجه من القوة إلى الفعل .

ويسمى العقل أيضاً عند الإسماعيلية بالقضاء . وذلك النفس – وهى الخلق الثانى بعد العقل – تقتضى – بالعقل – إدراك المعلومات ، وأن تظفر بما هو مطلوب أو سميت بالقضاء ، لأنه قضاء الله بين خلقه ويسمى العقل أيضاً بالهيولى ، لأن «بالعقل قوام ما ينبجس من الصور المستفادة ، كما أن الهيولى هى قوام الصور المستفادة من الطبيعة .

ويسمى العقل بالشمس ، لأن بالعقل نبصر الحقائق ، كما أن بالشمس نبصر المحسوسات من الصور والألوان[2] هو المبادئ العقلية أو القوة القابلة للطائف المبروزة المنبثة دفعة واحدة فيضا » ثم

(١) السجزى : تحفة المستجيبين ص ١٤٦–١٥٥ . (٢) السجزى : تحفة المستجيبين ص ١٤٦–١٥٥ .

أوجد الموجود الأول من العقل أثراً منفعلا هى النفس الكلية أو نفس العالم . والنفس – وهى الخلق الثانى المنبجس من الخلق الأول ، وإنما سميت نفساً ، لأنها تتنفس دائماً للاستعادة ليكون بتواتر تنفسها قوام الخلقة ، وتسمى أيضاً باللوح ، لأن الذى انفطر من العقل من أنوار الكلمة بتسطر فى النفس ، ومن النفس يتصل بجريانها المنبعثة منها على مقدار صفائها ولطافتها ، وتسمى النفس « بالملك » ومعنى ذلك أن النفس هى ملك العقل وعبدته ، لأن بالنفس ظهرت فضيلة العقل ، كما أن بالملك تظهر فضيلة الملك . وتسمى النفس لأنها الحال الثانى لجميع المخلوقين . ويقال لها التالى ، أى أنها تتلو العقل فى قبول آثار الحكمة ويقال للنفس القدر ومعنى هذه التسمية أن الذى يتحد بالنفس من فوائد العقل ، فإن التقدير والتحديد محاطان به . وتسمى النفس الصورة ومعنى هذا أنها تصورت من جوهر العقل الذى به تقف على فوائده . وهى العمر ، فتستفيد من أنوار العقل وضيائه ، وأنها متى همت أن تلحق به ، لتنزل منزلته ، محق نورها ، كما أن القمر يستفيد نوره من نور الشمس ، وإذا اجتمع مع الشمس فى المنزلة محقت نوره . والعقل والنفس هما الأصلان ، إليهما مرجع الأشياء جميعاروحانيًا أو جسمانيًا، وهما الهيول والصورة (١) .

وتؤثر النفس أى الصورة فى المادة الأرضية بقوالبها الإبداعية وجواهرها العقلية إنها صور الأشياء الطبيعية والجسمانية ، فظهرت الأفلاك والعناصر والأرض والسماء فى أربع وعشرين ساعة بحركة كلية ، وتناهت – أى انتهت – بعد ظهورها . أو بمعنى أدق لم يعد خلق جديد . ثم إن لكل جنس من الحيوان صورة روحانية تظهر وجودها فى الأجسام الهيولانية . ودارت الأفلاك واقترنت المدبرات ، فنزلت الأمطار وتصاعدت البخارات ، فأثار السحاب باختلاط الاستقصات (العناصر الأربعة) وامتزاج الأمهات (الأصول) فأمطرت الأرض ماء ، ثم أخرجت جثث الحيوان والبشر جميعاً وكل ما ظهر فى العالم من الكثيف واللطيف والمركب – ويستند الإسماعيلية فى هذا إلى قول الله « والله أنبتكم من الأرض نباتا » أى بظهور الأجساد التى هى من غير نطفة ، والأرواح بالقوة الإلهية المتكونة بالعالم الإلهى المعتدل الشريف .

أما أول بدء الكون فهو عرش الرحمن على الماء ، وقد تصاعد البخار وظهر الدخان ، فخلق من طبعه السموات والكواكب ، ومن أفعال هذه الكواكب خلق الأرض والمركبات . ويستند الإسماعيلية إلى قول الله « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

وأوجد الله الخلق دفعة واحدة وأظهر ما فى القوة إلى الفعل ، فعادت النفس الناطقة إلى أسبابها

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٦–١٥٥ .

التى لا تفسد ولا تموت ، أما النفس البهيمية ، فقد جذبتها وغلبت عليها اللذة الأرضية . فإذا تخلصت من هذه اللذة ارتقت إلى العالم الشريف – عالم العقل ، واستقرت به ولحقت بعنصرها الأعظم الذى منه بدت . وفارقت الكدورات والظلمات ، وصارت صورة لطيفة دراكة ذات أنوار مضيئة .

أما بدء الأوائل فى العالم فستة (١) العقل مع الدهر (٢) النفس مع الزمان (٣) الهيولى مع الأركان (٤) الطبيعة مع الأجسام . ويقابل هذه الأوائل الأصلان العليان المنبعثان وهما (٥) الكلمة (٦) والأمر . فهناك إذن ستة أوائل من عالم الربوبية ويقابلهم من البشر خلق ظاهرون أى يتملكون القوة الإلهية فى كل عصر وزمان ، يخرجون من البهيمية وبحر الندم . ويسميهم الإسماعيلية الملائكة – وهم على الترتيب . أناس عالمون وأمناء مقربون ورسل مصطفون وخيرة روحانيون وأملاك مرسلون وعباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقد أخبر الله عنهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أو كما قال تعالى « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم خلق الله الأرض فى ستة أيام ، وخلق السابع يوم التمام « ودل عليه بخمس حدود علوية ، وأصلين بهما تم الوجود ، ثم خلق الله لهذه الأرضين والسموات أنبياء لهم مقامات وظهور فى الأزمنة والأدوار إلى تمام الميقات . ثم جعل الشمس والقمر دليلين على هذه الأرضين ، فهما أبواهذه العوالم . وهما رمزان لمحمد ﷺ ، وعلى وقد قال الرسول لعلى « أنا وأنت يا على أبوا هذه الأمة وعلى عاتقنا لعنة الله (١) » .

فالشمس – أى محمد – هو الدليل على النور ، يخرج منه التأثير لعلى ، فيقبل القمر النور من الشمس . أى يقبل على النور من محمد . وهنا نجد أيضا عليا العرجون القديم فى دوراته وحركاته .

ولما ابتدأ الأمر ، فاض على عالم العقل بأمر الله ، وفاض العقل على عالم النفس بأنواره ، وفاضت النفس على من دونها فامتلأ عالمها من فيض العقل الممتلئ من فيض الله ، فاضت أقطار السموات بالسموات ، وبدأت الحركات من الحركات والمدبرات من الأوامر ، فقبلت فيض الأمر بما دونه من عالم الكون والفساد حتى ظهر الإنسان :

ظهر الإنسان ، مزيجا من روح وجسد ، فخص الله بذكر الأنوار العقلية أصحاب الأنوار السنية الذين عندهم علم الكتاب : الأنبياء والأوصياء والأئمة ، فأشرقت نور الرسالة بنفوسهم المقدسة وعقولهم المنورة ، ونزل الوحى بالفيض الأمرى على قلوبهم المنيبة . وتجمعت هذه الأنوار فى الناطق ، توالت عليه الأنوار الفلكية بمواد النفس الكلية لكى يشرف على النفوس الجزئية ويظهر فيها السعادة العظمى المنبثة من العلة الأولى وليطهرها من دنس الخطيئة . فقام بالشريعة ونشر قواعدها « وهذه سنة النبيين وبداية الأمر ونزول الروحانيين إلى الجسمانيين » .

---

(١) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٣ .

وكان آدم صاحب الدور الأول أول « جسمانى » تعبد الله وأظهر أمره وهو صاحب الخلافة « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » وكانت حجته زوجته حواء ونقباؤه اثنا عشر ملاكاً ، وهم الذين سجدوا له .

وكان نوح صاحب الدور الثانى ثم على التوالى إبراهيم وموسى وعيسى . وأخيراً أتى محمد ﷺ – وهو صاحب الدور السادس ، فنسخ شريعة من قبله من النطقاء ، وقام بباطن شرائع من تقدم قبله ، « والأئمة من بعده متممون لشريعته ومحيون لسنته » – قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » فليس بعد شريعته شريعة تنسخها . ثم نصب أساسه على بن أبى طالب ، ويأتى بعده القائم السابع متما « دور القرآن العظيم » وهو خاتم الواترات العظمى ومنتهى السدود [١] .

وهذه هى أيضا أفلاطونية محدثة واضحه نجد فيها نظرية الفيض المشهورة ، وإن كان يعبر عنها بالانبجاس . ونلاحظ أنه لا يوجد ثمة اختلاف بين هذا العرض الإسماعيلى لنظريتهم الميتافيزيقية إنه لا يختلف كثيراً عن تصور الشهرستانى له .

ثم نرى إسماعيليًّا متأخراًوهو الكرمانى – الداعى المشهور فى عهد الحاكم والذى ينسب إليه كتابة رسائل إخوان الصفا يستخدم نفس النظرية – ويعبر عن الفيض بالإبداع والانبثاث. وترى الأفلاطونية المحدثة واضحة فى كتابه « راحة العقل » .

وقد تنبه الشهرستانى بمنهجه المقارن إلى أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة . وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج [٢] . ومن الواضح تماماً أن أحد مصادرهم الرئيسية الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

أما البغدادى فيحاول أن يرد كتاباتهم إلى مصدر واحد هو المصدر الثنوى فيقرر أن الباطنية تذهب إلى أن الإله خلق النفس . فالإله هو الأول ، والنفس هى الثانى والاثنان يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبع والطبائع الأربعة ويرى البغدادى أن هذا هو قول الثانوية إن النور والظلمة يدبران أمر العالم وقولهم إن الأول والثانى يدبران أمر العالم وهو عين قول المجوس الذين يضيفون الحوادث إلى صانعين [٣] .

وهذا تفسير بعيد كل البعد عن المذهب الإسماعيلى . إنه مذهب غير ثنوى قطعا . حقًّا إنه تأثر بالمجوسية أو بالثنوية فى بعض جزئياته ولكن جوهر المذهب ليس مجوسيًّا . ويبدو أن من الخطأ الشديد أن نرد العقائد الإسماعيلية إلى مصدر واحد . لقد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية – كما صورها

---

(١) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٧١–١٧٢ .

المسلمون ، مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية . ولا شك أن بعض العناصر المجوسية دخلت فى خلال هذا . ولكن القول بأن نظرية العقل الكلى والنفس الكلية هى نظرية ثانوية فليس بحقيق . إنها نظرية أفلاطونية محدثة . استخدمها دعاة الإسماعيلية ، كما استخدموا نظرية الفيض الأفلاطونية . أما أهم المصادر للإسماعيلية ، فى مختلف صورها ، فهو الفيثاغورية المحدثة مختلطة بأفلوطينية .

ويتضح هذا من تفسيرهم الهام للشرائع نفسها فى صور أعداد ترمز إلى أئمة وحجج وأسس ، وتولية هؤلاء « قالوا ما من فريضة أو سنة أو حكم من أحكام الشرع – من بيع وإجارة وهبة ونكاح وطلاق ، إلا وله وزان من العالم عدداً فى مقابلة عدد ، وحكماً فى مطابقة حكم ، فإن الشرائع عوالم روحانية أمرية ، والعوالم شرائع جسمانية خلقية ، وكذلك التركيبات فى الحروف والكلمات على وزان تركيبات الصور والأجسام والحروف المفردة نسبتها إلى المركبات من الكلمات كالبسائط المجردة إلى المركبات من الأجسام ، ولكل حرف وزان فى العالم وطبيعة يخصها ، وتأثير من حيث تلك الخاصية فى النفوس » وترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد ، وما ترمز إليه من شريعة أصبحت « علما تعليميا » أى يؤخذ من الإمام ، وهذا العلم المستفاد من الإمام هو غذاء النفوس ، كما أن الأغذية المستفادة من الطبائع الخلقية غذاء للأبدان ، وقد قدر الله تعالى أن يكون غذاء كل موجود مما خلقه منه . وقد أدى هذا العلم التعليمى إلى قيام الأئمة الباطنية الإسماعيلية وحججهم « بذكر أعداد الكلمات والآيات ، وأن التسمية مركبة من سبعة واثنى عشر » أى الأئمة السبعة والنقباء الاثنا عشر . » وكذلك فى كل آية أمكنهم استخراج ذلك » . وهذا هو تأثير القبالا اليهودية فى المذهب الإسماعيلى وقد كانت القبالا منتشرة فى العالم الإسلامى .

كان هذا المنهج الباطنى فى تفسير الآيات ديدن الأئمة الإسماعيلية ، وقد أرجعوه إلى علم إمام الزمان الذى يعرف وحده « موازنات هذه العلوم ، ويهتدى إلى مدارج هذه الأوضاع والرسوم [1] .

كان هذا المنهج الباطنى سلاحا ذا حدين ، هو إما أن يتجه إلى تثبيت الإسلام الشيعى الإسماعيلى أو الاثنى عشرية وإما إلى محاولة القضاء على الإسلام كله ، وبخاصة فى الأماكن البعيدة عن مركزالدعوة فى سلمية كاليمن مثلا أو الجهات البعيدة فى فارس . بل سنراه أيضا قريباً من سلمية فى جنوب العراق وشمالها يتخذ تلك الصورة الفريدة فى نوعها وهى صورة حركة هزت العالم الإسلامى – وهى صورة القرامطة ، كما سنرى فى أيدى الدعاة كأحد الكيال حركة فلسفية خطيرة . وسنتابع فى الفصول المقبلة الصور المختلفة للفلسفة الإسماعيلية أو للفلسفات الإسماعيلية .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٩ .

الفصل الثالث

الإسماعيلية فى اليمن

تولى الإمامة الإسماعيلية بعد الإمام أحمد ابنه الحسين ، وقد تلقب بالمقتدى وبالزكى . وقد اختلفت آراء الباحثين فى حجته – كما نرى بعد . ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن ميمون كان حجته فى أخريات حياته – ويقال إن ابنه حسين بن عبد الله بن ميمون كان هو حجته ، ولكن المؤرخين يذكرون أن حسيناً مات فى حياة أبيه عبد الله بن ميمون – والبعض يرى أن حجته كان أحمد بن عبد الله بن ميمون والآخرون يرون أن حجته هو محمد بن أبى الشلعلع – من أبناء عبد الله أيضا ، وإن فحص هذه الأسماء إنما يهم البحث التاريخى – أما نحن هنا ونحن وراء الأفكار الفلسفية ، فيمكننا أن نقول إن الإمام الحسين تولى زعامة الإسماعيلية ، وكان أحمد بن عبد الله القداح حجته ، سواء أكان أحمد هذا الابن الأكبر لعبد الله بن ميمون أم لا ، أم كان هو أبا الشلعلع وإن هذا الإمام كان على جانب كبير من العلم والثقافة ، وأنه كتب « الجامعة » شرحا لرسائل إخوان الصفا . وقد تمكن هذا الإمام بواسطة دعاته وحججه أن ينشر دعوته فى أرض سبخة للمذهب الإسماعيلى على الخصوص – وهى اليمن .

وقد اختار عبد الله بن ميمون القداح للدعوة رجلين كان لهما شأن كبير فى تاريخ اليمن . أما أولهما : فهو القاسم ، رستم بن الحسين حبيب بن زادان [1] النجار الكوفى المشهور بابن حوشب . كان أبوه من الشيعة الإمامية ، وكان يدعى الانتساب أيضاً إلى ولد مسلم بن عقيل كما فعل عبد الله بن ميمون من قبل من الانتساب إلى بنى عقيل [2] تمكن عبد الله بن ميمون ، ثم ابنه حسين من بعده من جذب الرجل إلى المذهب الإسماعيلى ، وقد لقناه علم النجوم وعلوم الفلسفة حتى برع الرجل فى كل تلك العلوم . وكان أبناء القداح يعدونه للدعوة فى اليمن . وكانت الدعوة فى اليمن تسير بحذر وبطء ، ولكن كان لها بعض المراكز ، وبعض العيون ، وما لبث عبد الله بن ميمون أن علم بزيارة أحد كبار رجال الشيعة الإمامية اليمنيين للمشاهد المقدسة فى كربلاء وهو على بن فضل الجدنى – وهو ينتسب إلى قبيلة يمنية كبيرة . وخرج الإمام حسين الإسماعيلى لمقابلته . وأمام قبر الحسين كان على بن فضل يبكى الحسين ابن فاطمة وينوح ويقول : بأبى أنت يا ابن الزهراء المضرج بالدماء ، الممنوع من شرب الماء :

---

(١) يرى بعض المؤرخين أنه ابن دندان وأنه ابن حفيد لدندان الشعوبى الخطير .

(٢) الهادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢ .

وما لبث عبد الله بن ميمون وابنه الحسين أن قابلاه – وقابل على بن فضل – فيما بعد – الإمام حسين . واعتنق ابن فضل الدعوة الإسماعيلية وجمع ابن ميمون الاثنين ابن حوشب وابن فضل وأخذ يلقنهما دروس الدعوة .

يذكر اليمانى أن ابن ميمون قال لابن حوشب : يا أبا القاسم إن الدين يمانى والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من اليمن ، فإن يكون ثابتا كثبوت نجم النجم ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى أقاليم الدنيا ، ولا بد من خروجك إلى هناك أنت وأخوك على بن فضل اليمانى [1] ، فسيكون لكما شأن وملك وسلطان فى اليمن فكونا على أهبة ، وخرج الاثنان إلى اليمن عام ٢٦٧هـ – وهو عام افتتاح الدعوة الإسماعيلية الرسمى ، وأخذ كل منهما يدعو فى ناحية منها وما لبث ابن حوشب أن اتخذ « دار هجرة » كما يفعل الدعاة الإسماعيليون عادة ثم نجح نجاحا باهرا ، وتسمى بمنصور اليمن ، وملك معظم أراضيها بحيث يقول الداعى الخطاب بن الحسين « كان بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأنار حنادس الظلمة [2] » .

وقد أصبحت إمارة بن حوشب بعد ذلك مدرسة للدعاة ، ومنها أرسل ابن حوشب الداعين المشهورين الحلوانى وأبا سفيان إلى المغرب وقد تعلما فى مدرسة الدعوة فى اليمن أصولها : كما تعلما التفسير الباطنى للقرآن. ثم ودعهما ابن حوشب بقوله « قولا لكل شىء باطن . واذهبا فالمغرب أرض بور ، فاحرثاها وأكرياها ، حتى يأتى صاحب البذر » وصاحب البذر هو الداعى الأكبر أبو عبيد الله الشيعى . وقد استجاب لهما أهل كتامة . فلما توفى الداعيان، أرسل ابن حوشب أبا عبد الله الشيعى المشهور . وقد مهدت له الأرض ، فكان ثمرة مجهوداته إنشاء الدولة الفاطمية . وقد بقى ابن حوشب مخلصاً للدعوة الإسماعيلية ، ثم لعبيد الله المهدى حتى وفاته .

وينبغى أن نلاحظ أن ابن حوشب اتخذ فى أول الأمر ستاراً سنيًّا ، ثم بدأ يبث دعوة التأويل ، وحين جذب الأتباع ، وأقام دار الهجرة أعلن عقيدته الإسماعيلية كاملة ، وهى موالاة الإمام الإسماعيلى ، طبقاً لفكرة الدور السبعى ، ثم بقية المذهب فى صورة معتدلة ، ولكنها لم تمنع اليمانى من أن يدعوه بالقرمطى . وكان اليمانى من أشد الناس على الإسماعيلية . إنه يرى أن ظهور الميمونية القداحية كان فى الكوفة على يد عبد الله بن ميمون القداح عام ٢٧٦ هـ « وما كان له من الأخبار المعروفة والمنكرات المشهورة الموصوفة ودخوله فى طرق الفلسفة ، واستعماله الكتب المزخرفة ، وتمشيته إياها على الطغام ومكيدته لأهل الإسلام » .

---

(١) اليمانى : كشف.. ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد ص ٣٩ .

ويرى أنه جعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً ، ولكل حديث عن رسول الله ﷺ تأويلا ، وزخرف الأقوال ، وضرب الأمثال ، وجعل لآى القرآن شكلا يوازيه ، ومثلا يضاهيه ، وأنه كان على علم بعلم التنجيم والفلك .

أما أساس دعوته فهى الدعاء إلى الله وإلى رسوله فى ظاهر الأمر ، ويحتج بالقرآن ومعرفة مثله ومثوله ، كما كان يقرر موالاة على بن أبى طالب بالتقديم والإمامة ، والطعن على جميع الصحابة بالسب والأذى .

تلك هى الدعوة التى حملها ابن حوشب إلى اليمن عن أستاذه عبد الله بن ميمون أو ابنه الحسين بن عبد الله أو ابنه عبيد الله – أو الإمام الحسين نفسه الإسماعيلى . ولكن هل كان ابن حوشب – فيما سوى ذلك يبيح الفروج . إن اليمانى يذكر أنه كان يقول بعد انتصاراته الكثيرة « والله ما أخذت هذا الأمر بمالى ولا بكثرة رجالى وإنما أنا داعى المهدى الذى بشر به النبى ﷺ » ولكنه يذكر أنه حين استولى على جبل مسور بنى حصناً وبنى فيه داراً أسماها دار التحية « فعند ذلك أحل ما حرم الله ، وكان يجمع أصحابه فى ذلك القصر ونساءهم يرتكبون الفواحش [1] .

هل من السهولة بمكان أن نصدق هذا . وهل يعقل أن يفعل هذا فى وسط بطون عربية يمانية ؟ .

وهل كان ابن حوشب داعياً للقداح أو داعياً للإمام الحسين نفسه ؟ ولماذا بقى على ولائه للفاطميين وكانوا بعيدين عنه ، وكان هو صاحب السلطان فى اليمن ؟ هل كان يعلم أنه يعمل لرجل يقول عنه اليمانى : كان القداح يعتنق اليهودية ويظهر الإسلام ، وهو من اليهود ومن ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية وكان من أحبار اليهود وأهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب وكان صانعاً يخدم شيعة إسماعيل بن جعفر وكان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية لما ركب الله فى اليهود من عداوة الإسلام وأهله والبغضاء لرسول الله [2] .

هل كان ابن حوشب من الجهالة والحماقة بحيث يتبع رجلا يهودياً لمجرد أنه عارف بالفلسفة وأحكام النجوم ، فيخرج إلى بلد بعيد ، يحارب ويقاتل وينشىء دولة لأجله ولأجل أولاده . إن الحل الصحيح أن ابن حوشب أرسل من لدن الإمام الحسين نفسه بعقيدة إسماعيلية خاصة ، ولو لم يكن معتقدا أنه على الحق لاحتذى حذو على بن فضل حين خرج على المهدى عبيد الله وادعى الأمر لنفسه وأعلن نبوته . إنه لم يفعل هذا ، بل حارب غلو على بن فضل . وهذا يدل على أن الرجل لم يكن غالياً إسماعيليًا ، وإنما كان من رجال الإسماعيلية المعتدلة .

* * *

(١) الحامدى اليمانى : كشف .. ص ٢٦–٢٧ .

(٢) الحامدى اليمانى : كشف أسرار .. ص ١٧ ، ١٨ .

أما الشخصية الثانية : وهى شخصية على بن فضل الجدنى ، وبينما كان ابن حوشب عراقيًّا ، كان ابن فضل يمنيًّا . وقد قال هو نفسه للقداح حين دعاه فى الكوفية« والله إن الفرصة ممكنة باليمن ، وإن الذى تدعو إليه جائز هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم ، وذلك لما أعرف فيهم من ضعف الأحلام وتشتيت الرأى وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية (١) . وحين عاد على بن فضل إلى اليمن ، ذهب إلى سرو يافع وبنى مسجداً على رأس جبل فيها ، « وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائماً وليله قائماً . فأنسوا إليه وأحبوه وافتتنوا به ، ثم إنهم قلدوه أمرهم وجعلوا حكمهم إليه ، فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ، ويسكن بينهم . فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطونى العهود والمواثيق أن لا يشربوا الخمر – ففعلوا ذلك وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصى بأجمعهم ، فلم يزل يخدعهم بعبارته حتى بلغ إلى إرادته »(٢) .

ونحن نعلم أن غلاة الشيعة دائماً يدعون التقشف والتزهد ، ولذلك أطاعه اليمنيون ، فاتخذ دار هجرة فى سرياقع وبدءوا يتخطفون بلاد اليمن « جهاداً لأهل المعاصى حتى يدخلوا فى دين الله طوعاً وكرهاً » وأخذ أيضاً « القرمطى » يتحكم فى الجانب الآخر من اليمن .

وكان ابن فضل يعمل باسم الإمام المستور الحسين ، فلما مات الإمام الحسين – كما سنرى بعد – واستخلف حجته عبيد الله المعروف بالمهدى – وهو ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وجعله إماماً مستودعاً لابنه القائم – لم يرض ابن فضل ، كما لم يرض حمدان بن الأشعث المشهور بحمدان قرمط ، ولذلك حين أتى فيروز – باب أبواب الدعوة – منقلباً على عبيد الله المهدى ، وهاربا من ابن حوشب وجد لدى على بن فضل أمنا وحماية . ولسنا نتكلم هنا عن الدوافع التى أدت إلى هرب فيروز – باب الأبواب وكبير الدعاة وأستاذ ابن حوشب داعى اليمن وأستاذ أبى عبد الله داعى مصر وصهره – ولسنا نهتم هنا بمحاولة فيروز إغراء ابن حوشب . إنما ما يهمنا هنا أن على بن فضل الجدنى أعلن ثورته عام ٢٩٩ هـ – منفصلا عن الخلافة الفاطمية الجديدة – وحاربه ابن حوشب ، ولكن ابن فضل تغلب عليه . وحين أعلن ابن فضل دعوته تبرأ منه أيضا فيروز .

ولكن ما هى هذه الدعوة التى أعلنها على بن فضل ؟ إن مصدرنا الهام فى هذه الفترة وهو محمد بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى – وهو أحد فقهاء السنة فى أواسط المائة للهجرة ، عاصر الصليحيين ، وهم بقايا إسماعيلية ابن حوشب وابن فضل – يقدم لنا أخباراً على جانب كبير من الأهمية عن انسلاخ على بن فضل عن الدعوة الإسماعيلية ، ثم عن الإسلام نفسه .

---

(١) اليمانى : كشف .. ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

إن الرجل الذى بدأ إماميًّا ثم انقلب إسماعيليًّا ، ما لبث أن خلع كل عقيدة وأعلن نبوته ، فكتب إليه ابن حوشب يعاتبه ، فأرسل إليه على بن فضل «إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ولى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، لأنه خلع ميموناً وابنه ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى . فإما نزلت على حكمى ودخلت فى طاعتى وإلا خرجت إليك»[1] .

أعلن على بن فضل – فيما تقول المصادرالسنية والشيعية التى بين أيدينا – نبوته ثم ألوهيته وتسمى باسم «رب العزة كما تسمى ابنه باسم «ابن رب العزة» .

بل يذكر اليمنى الحمادى – أنه أنشأ مجتمعاً إباحيًّا أحل فيه البنات والأخوات . ووقف شعره على منبر الجامع يقول للجند :

خذى الدف يا هذه والعبى ... وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعة ... وهذى شرائع هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صاموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين ... من أقربى ومن أجنبى
فكيف تحلى لهذا الغريب ... وصرت محرمة للأب
أليس الغرام لمن ربه ... وسقاه فى الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء ... حلالا فقدست من مذهب[2]

أعلن على بن فضل نبوته . كما أعلن انتهاء الشريعة الإسلامية وأحكامها ، إن صح هذا الشعر المنسوب إلى شاعره . فهو إذن صورة من غلاة الكوفة ، الذين أقاموا فى عهود سابقة مجتمعات إباحية .

ولكن نلاحظ أن على بن فضل كان يعيش فى بيئة عربية خالصة ، بيئة تحافظ على العرض وتقدسه . فهل من البساطة أن نقبل أنه «كان لهم المشهد الأعظم ، لا يشهده إلا من دفع للداعى قربانه ، فإذا جن الليل ، ودارت الكؤوس ، وطابت النفوس . وقد أحضر جميع أهل الدعوة نساءهم وحريمهم فيدخلن عليهم وقد أطفئوا السرج ، فيأخذ كل واحد من تقع فى يده – ويقع عليها ، فتنطلق بشكر الداعى على من أفاء من فضل ، : ليس إلا من فضل أمير المؤمنين ، فاشكروه ولا تكفروه على

(١) اليمانى : كشف ص ٣٣ .
(٢) اليمانى : كشف... ص ٣١ .

ما أطلق من وثاقكم ، ووضع عنكم أوزاركم ،وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، نستطيع أن نفهم حدوث هذا فى مجتمع مختلط كالكوفة وسوادها لدى القرامطة – وإن لم يصح هذا فعلاً عنهم ، أو فى البحرين ، ولم يصح أيضاً هذا عنهم – وفى بقايا الثنوية الغنوصية فى فارس . وقد صح هذا عنهم – ولكن لا نستطيع إطلاقاً أن نصدق أن يعلن على بن فضل مذهب الإباحة فى المجتمع العربى اليمنى ، إن من الثابت ادعاءه للنبوة – فهو صورة أخرى من المتنبى القديم «مسيلمة الكذاب» ولكن لا نستطيع أن نصم الرجل بالإباحة . وقد أدى عداؤه للفاطميين وللحواشب إلى قتله بالسم عام ٣٠٣ هـ بعد وفاة زميله القديم وعدوه الجديد ابن حوشب عام ٣٠٢ هـ .

مات القرمطيان إذن بعد أن اختلفا . وتولى الفأفأ بن على بن فضل والمدعو «بابن رب العزة» الإمارة بعد أبيه ولكن هجمات السنة والزيدية عليه قد اشتدت وقد انتهت بمقتله وسبى بنات على بن فضل .

أما إمارة منصور اليمن ابن حوشب فقد ولى عبيد الله المهدى تابع ابن حوشب عبد الله بن عباس الشاورى الإمارة ، فقتله أبو الحسن بن حوشب وعاد إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وتتبع القرامطة من أتباع أبيه فقتلهم «ثم قتل أولاد ابن حوشب وأسرته فى تاريخ لا يعنينا كثيراً .

ولكن هل ماتت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، لقد عادت مرة ثانية إلى كهف الاستتار . «وانكتم أمرهم عن الحكام» وأول من نعرف من الدعاة الجدد هو ابن رحيم فى عهد المعز «وكان لا يستقر فى موضع واحد . . وهو يكاتب بنى عبيد وذلك بعد خروج المعز من القيروان إلى بلاد مصر . . فلم يزل ابن رحيم يكاتب أهل مصر والمعز ومن بعده وينهى أخبار أهل اليمن حتى مات واستخلف على من بقى من القرامطة يوسف بن الأمشح – وكان يدعو للحاكم ويبايع له سرًّا ، حتى مات يوسف . واستخلف على مذهبه سليمان بن عبد الله الرواحى من حمير – وكان يدعو إلى الحاكم وإلى المستنصر ، وكان سليمان من أغنياء أهل اليمن ، فتمكن بغناه وثروته من أن يجذب إليه كثيرين من الأتباع ويقيم مجتمعاً إسماعيليًّا للمرة الثانية فى اليمن .

وقد استطاع سليمان أن يجذب إليه أبا الحسن على بن محمد الصليحى ، وكان على بن محمد ابناً لقاضى سنى مشهور باليمن وهو محمد بن على الصليحى ، وقد استطاع الرواحى التأثير فى الابن – وهو دون البلوغ . وكان يدرسه الذخائر القديمة ويخبره أن أمره بهذه الكتب ، وأنه سيملك اليمن [1] . ثم مات الرواحى ، وأوصى بالدعوة للصليحى ثم اجتمع الإسماعيلية حواليه ، وأرسل يستأذن المستنصر

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٨٣ .

بالخروج ، فأذن له ، فملك اليمن وأنشأ الدولة الصليحية .

وهنا نرى الدعوة الإسماعيلية تعود مرة أخرى وتحكم اليمن عام ٤٣٩ . وقد بقيت الدولة الصليحية حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبى ولم يبق من آثارها إلا قبيلة يام وهى إلى اليوم باطنية تنتمى إلى بهرة الهند .

ما هى الدعوة الإسماعيلية الصليحية ؟ يبدو أنها هى الدعوة الإسماعيلية الفاطمية ، ويقول اليمانى عن الصليحى وقد عاصره «إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكلين ، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل . . » وأنه رفع الشرائع الإسلامية من الصلاة والزكاة والصيام . وهذا بعيد التصديق . ثم يخدعون الناس بروايات عن النبى ﷺ محرفة وأقوال مزحرفة ، ويتلون عليهم القرآن على غير وجهة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه » أى أنهم لجأوا إلى منهج التأويل الباطنى للقرآن » فيبينون للناس رموز القرآن ومثله وممثوله ومعانى الصلاة والطهارة . ثم يخبرون من يدعونه «إن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لممثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ، ومعانيها فإن العمل بغير علم ، لا ينتفع به صاحبه فالزكاة مفروضة فى كل عام ، وكذلك الصلاة ، من صلاها مرة فى السنة ، فقد أقام الصلاة بغير تكرار» وللصلاة وللزكاة باطن ، لأن الصلاة صلاتان والحج حجان . واحد باطن وواحد ظاهر ، وما من ظاهر إلا وله باطن . إن الله يقول «وذروا ظاهر الإثم وباطنه» ويقول «إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن» فلكل شىء ظاهر وباطن . والظهر ما تساوى به الناس وعرفه الجميع خاصهم وعامهم ، أما الباطن فلا يعرفه إلا الخاصة المختارون «وما آمن معه إلا قليل» «وقليل ما هم» «وقليل من عباد الشكور» فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم . وهذا يذكرنا بقول عبد الله بن ميمون عن الجمهور إنهم الحمير .

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد صلى الله عليه وعلى على . فالمعنى بالصلاة ، الزكاة ولاية الرسول وابن عمه . فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة . ويقول اليمانى – إنهم بهذا يؤثرون فى خلق كبير من الناس «لأنه مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ويبيح لهم ما خطر عليهم من محارم الله» .

فإذا قبل المدعو هذه العقائد ، يطلب الداعى منه قرباناً «يكون لك سلماً ونجوى ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر» فإذا دفع رفعت عنه الصلاة . ويقرأ الداعى له «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم» ثم يقبل أهل الدعوة الآخرون فيهنئونه ويقولون : الحمد لله الذى وضع عنك وزرك الذى أنقض ظهرك .

ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر ، ويخبره الداعى أنهما رمزان لأبى بكر وعمر لمخالفتهما لعلى وظلمهما

له وأخذهما الخلافة منه . أما الخمر المعصورة فهى حلال ، ويتلو «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ويتلو «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» فأحل لهم الميتة ولحم الخنزير .

أما الصوم فيفسره الداعى بأنه «الكتمان» وتفسيره الآية : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» أى كتمان الأئمة فى وقت الاستتار خوفاً من الظلمة . ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم «إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا» . فلو كان الله عنى بالصيام ، ترك الطعام ، لقال : فلن أطعم اليوم شيئاً ، فالصيام إذن هو الصموت عن الكلام .

أما الطهارة ، فهى طهارة القلب فى التأويل الصليحى «إن المؤمن طاهر بذاته ، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره» أما الجنابة فهى موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن . ويفسر الداعى معنى «وإن كنتم جنبا فاطهروا» معناه «فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا والعلم الباطن هو حياة الأرواح – وهو كالماء الذى هو حياة الأبدان . قال الله تعالى «وجعلنا من الماء كل شىء حى» وقول الله «فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق» فلما سماه الله بهذا ، دل على طهارته .

ثم تأتى المرحلة الأخيرة – منتهى الأمر وغاية السعادة – فيتلو الداعى «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» فيقول المخدوع «ألهمنى إياها ودلنى عليها» فيتلو عليه «قد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ثم يقول له «أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا ؟» فيقول : وكيف لى ذلك ؟ فيتلو عليه «وإن لنا للآخرة والأولى» ، ويتلو عليه «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» والزينة هنا ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك . وذلك قوله «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن» والزينة مستورة ، غير مشهورة . ثم يتلو قول الله «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» . فمن لم ينل الجنة فى الدنيا – فى نظر الباطنية الصليحية – لم ينلها فى الآخرة ، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب وأهل العقول ، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى . ولذلك سميت الجنة جنة ، لأنها مستجنة ، وسميت الجن جنًّا لاختفائهم عن الناس ، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يستتر به ، فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل . ثم يدعى هو وزوجته وبناته إلى المشهد الأعظم [1] – وقد سبق أن وصفناه فى عقائد بن فضل – حيث يفترس الرجل أى امرأة يقع عليها .

هذا ما نقله إلينا اليمانى عن الصليحيين ، كما نقله عن ابن حوشب وابن فضل . والمشكلة : هل

---

(١) الحمادى اليمنى : كشف ص ١١–١٥ .

نستطيع ببساطة أن نصدق قيام المذهب الإباحى فى اليمن ؟ وهل يمكن للصليحى أن ينشئ دولة هو وأولاده فى بقعة عربية صميمة على هذا الأساس ؟ وهل من المعقول أن يقاتل أتباعه فى هذه القرون السحيقة دفاعاً عن عقيدة إباحية ؟ وهل كان المستنصر فى مصر يقر هذا ، وفقهاء السنة ومشايخهم وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية له بالمرصاد ؟

ومن العجب أن ابن خلكان وهو ينقل لنا حياة على بن محمد الصليحى ، يقول عنه «كان فقيهاً فى مذهب الإمامية مستبصراً فى علم التأويل ، ثم إنه صار يحج بالناس دليلا على طريق السراة ، ثم حين استولى على اليمن - ذهب إلى الحج . فقتله سعيد بن نجاح صاحب تهامة فى الطريق [1] .

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ٧٣ - ٧٥

الفصل الرابع

القرامطة

أو تطور الكيسانية

اختلف الباحثون فى تفسير كلمة « القرامطة » والتفسير الشائع لها أنها نسبة إلى حمدان بن الأشعث الكوفى الملقب بقرمط ، وأنه سمى بقرمط لقرمطة فى مشيته . أو أنه كان يتقارب فى خطاه . وقيل إنه أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت هى الآجر فى لغة الروم والعرب فقيل قرمد من قرمط ، ويذكر أيضاً أنه كان أجارًا أى صانع الآجر .

وقد ذكر ابن الجوزى الروايات المتعددة التى ذكرت فى سبب التسمية بالقرمطة [1] . ولكن ظهور بعض الرسائل الدرزية الأخيرة ، وسنعود إلى هاتين الرسالتين فيما بعد – سيلقى الضوء الحاسم على ظهور اسم القرامطة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وفى أوائل القرن الخامس . وعلى أية حال فالقرمطة إن لم تكن باسمها ، بل بمعناها إنما نشأت على يد حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط فى سواد الكوفة فى العقود الأخيرة من القرن الثالث الهجرى وأصبحت فى كتب أهل السنة والجماعة تمثل الهرطقة والإلحاد والتحلل والفوضى ، وتشير إلى المذهب الإسماعيلى ، بالرغم من اختلافاتها الجوهرية مع الإسماعيلية فى كثير من الفترات . أما القرامطة أنفسهم فقد اعتبروا القرمطة الحركة العظيمة التى تظهر بين الحين والحين ، تلقى فى العالم الإسلامى بذور الإصلاح . وقد اختلفت آراء الباحثين قديماً وحديثاً فى حقيقة هذه الحركة ، والباعث عليها ، هل هى حركة عقائدية فارسية آرية تجاه الدين السامى – الإسلام – وقد تهافتت هذه الفكرة أمام الحقيقة الواضحة وهى أن العدد العديد من العرب فى العراق والشام واليمن قد أيدوها تأييداً كاملاً . أم هى حركة شيعية إسماعيلية آمنت بأحقية الفرع الإسماعيلى وقامت للدفاع عنه . ولكن يبدو أنها اعتنقت فى فترات المذهب الإسماعيلى ، ثم اختلفت معه . أشد الاختلاف حين استطاع الأئمة فى سلمية إقامة الدولة الفاطمية فى المغرب ، ومهما قيل فى أصل الأئمة ، ومهما قيل إنهم أظهروا فى أثناء خلافتهم المذهب الظاهر وأخفوا المذهب الباطن ، فإن الدولة الفاطمية كانت دولة إسلامية شيعية ، لم تخرج أبداً عن نطاق الإسلام ، اللهم إلا فى عهد الحاكم – وقد قتله الفاطميون أنفسهم .

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٠٤–١٠٥ .

وأخيراً – يحاول سيد المؤرخين المعاصرين العرب الباحث العراق الممتاز الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى أن يبين أهمية العامل الاقتصادى فى قيام الحركات الشيعية المتطرفة فى أواخر الدولة العباسية . وهو يتفق مع الأستاذ برنارد لويس فى «أن التمايز بين العرب والموالى حل محله تمايز على أساس اقتصادى وصار الحزب الشيعى الثورى يضم تحت لوائه كل الطبقات المظلومة ، فالنبلاء الفرس اعتنقوا مذهب السنة ، بينما العرب الفقراء فى العراق والشام والبحرين اتبعوا الغلاة من الشيعة ، ثم يرى الدكتور الدورى أن لويس يتطرق فى كتابه أصول الإسماعيلية إلى التدابير الاشتراكية التى اتخذها القرامطة فى العراق والبحرين ولكنه لم يبحث الأسس الاقتصادية ، ولم يتعد تلخيص ما ذكره ابن رزام عن تدابير حمدان فى العراق وما ذكره ناصر خسرو عن تدابير قرامطة البحرين . إذ أن الأستاذ لويس لم يعن بالناحية الاقتصادية – على خطورتها – العناية اللازمة فالدكتور الدورى يوجه الأنظار إلى أهمية العامل الاقتصادى الهام فى ظهور حركة القرامطة فى كتابيه «الحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى» و «دراسات فى العصور العباسية المتأخرة» [1] وإلى أوجه أنظار الباحثين فى مصر بالذات إلى أبحاث الدورى التاريخية المتعددة .

وإذا انتقلنا إلى الكوفة وسوادها – مسرح القرامطة الأول – لو صح أن حمدان بن الأشعث هو أول من لقب بقرمط – لكانت الكوفة إمامية فى مجموعها لاشك . ولكن الغلاة كانوا هناك دائماً ، غير أن هناك فرقة من الغلاة كانت لا تقل أهمية فى العدد عن المجموعة الإمامية الكبرى – وهى الكيسانية حنفية كانت أو أبا هاشمية – وقد شاركت الكيسانية فى كل الحركات الغالية ، ورأينا كيف وقعت فى يد الراوندية أو الأبى مسلمية . وفى كل مرة يعود الثائرون المنهزمون إلى ديارهم فى سواد الكوفة يعملون فى الحرف والصناعات . وتكونت منهم النقابات ، ونحن نعلم أن النقابات كانت شيعية أو أقرب إلى الشيعية . وقد اتخذت شفيعاً لها سلمان – الركن الشيعى القديم .

وكان حمدان بن الأشعث على رأس هذه النقابات وقد اشتهر – ككثير من رؤساء النقابات ومن يحملون على عاتقهم مسئولية الطبقات الفقيرة العاملة – بزهده ، كما اشتهر أيضاً بقصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه ، فدعى بقرمط فى بعض الروايات كما قلنا . كما اشتهر باسم صاحب الخال والمدثر والمطوق وكان المبارك المشهور قد أتى وبث دعوته فى الكوفة ،لإسماعيل ولمحمد بن إسماعيل ولذريته ، ولا شك أنه رنا بعينيه إلى السواد وإلى الكيسانية أو الحنفية المنتشرة فيها . ولكن لا يبدو أنه اتصل بهم اتصالا مباشراً أو أن مؤسس الإسماعيلية ميمون القداح قد اتصل بهم ، وإنما تم على يد الحسين الأهوازى – مبعوثاً من قبل أبيه عبد الله بن ميمون .

(١) مقدمة الدكتور عبد العزيز الدورى لأصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (الترجمة العربية) ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ .

ولقد بقيت لنا عقائد الحنفية أو الكيسانية فى هذه وهى العقائد التى بدأت على يد هند الناعطية وليلى بنت قامة المزنية وغيرها من الغاليات والغلاة فى محمد بن الحنفية وأولاده . فلم يكن مقتل المختار إذن نهاية لعصر محمد بن الحنفية وأولاده ، ولم يكن تسليم أبى هاشم بن محمد الحنفية الوصية للعباسيين كما ادعى العباسيون – نهاية الكيسانية .

وينقل إلينا الطبرى شذوراً من هذه العقائد عن كتاب للحنفية جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : يقول الفرج بن عثمان – وهو من قرية يقال لها نصراته داعية إلى المسيح : وهو عيسى وهو الكلمة ، وهو المهدى أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل . وذكر (أى فى الكتاب) أن المسيح تصور فى جسم إنسان . وقال له : إنك الداعية وإنك الحاجة . ولك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكريا » .

ثم يقدم لنا الكتاب فرائض جديدة « عرفه أن الصلاة أربع ركعات – ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها . وأن الآذان فى كل صلاة أن يقول : الله أكبر – الله أكبر – أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله . وأشهد أن نوحا رسول الله . وأشهد أن إبراهيم رسول الله . وأشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وهى أن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح . ويذكر أنها من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية . ومعنى هذا أنه وجد أيضاً كتاب منزل على أحمد بن محمد بن الحنفية .

ثم يذكر الكتاب أن القبلة هى إلى بيت المقدس والحج إليه والسورة أى الاستفتاح من هذا الكتاب المنزل « الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه . قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والشهور والأيام ، وباطنها أوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى اتقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم . وأنا الذى أحمد عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى ألقيته فى جنتى ، وأخلدته فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى – وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى وأنا الذى لم يعل على جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصر على أمره وداوم على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون . ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان ربى رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون . يقولها مرتين . فإذا سجد قال الله أعلى الله أعلى – الله أعظم . ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة وهما المهرجان والنوروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة إلا الوضوء

كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ومن يحاربه ممن يخالفه ، أخذت منه الجزية ولا يؤكل كل ذى ناب ، ولا كل ذى مخلب [١] .

هذه هى صورة من هذا الكتاب الحنفى ، انتشر فى جنوب العراق ، كما انتشر فى البحرين – فيما بعد – وهذه هى العقائد التى كانت تدين بها الكيسانية أو الحنفية فى سواد الكوفة حين أتى حسين الأهوازى عام ٢٦٣ هـ يدعو حمدان الأشعث إلى المذهب الإسماعيلى .

ومن الخطأ الكبير أن يقال إن المبارك هو حمدان قرمط على ما ورد فى سياسة نامه لنظام الملك . وقد تنبه لويس إلى هذا فقال : كان المبارك على ما ورد فى سياسة نامه حجازيا وكان خادما لمحمد بن إسماعيل ، وكان يجيد نوعا من الخط يسمى «مقرمط» ولذلك عرف باسم قرمطويه . وقد أغراء عبد الله بن ميمون القداح فأنشآ فرقة ونشراها وهى الفرقة التى عرفت بالمباركية أو القرمطية نسبة إلى اسمه . وإنى لأعتقد بوجوب رفض هذا الزعم الذى يرى المبارك وقرمطويه شخصا واحداً للبيانات والدلائل القديمة الموثوق بها التى تنافيه كالأشعرى والبغدادى والمقريزى» [٢] .

ومن الواضح أن لويس – تنبه وإن لم يذكر هذا – إلى أن ابتداء أمر حمدان قرمط كان فى عام ٢٦٤ . وكان المبارك من موالى جعفر الصادق ، فهناك إذن استحالة تاريخية أن يكونا شخصا واحداً . وقد كان القمى أكثر دقة من صاحب سياسة نامه فقد اعتبر المباركة فرقة شيعية غير غالية ، ولكن افترق عنها فرقة غالية تسمى القرامطة ، وإنما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب قرمطويه [٣] .

والمجلسى فى بحار الأنوار يؤيد أيضاً القمى . . فيرى أن فرقة قالت بوفاة إسماعيل فى حياة أبيه ، وهؤلاء القرامطة وهم المباركية وسمى القرامطة برئيس لهم من أهل السواد يسمى قرمطويه ، أما المباركية فيرجل يدعى المبارك مولى إسماعيل والقرامطة أخلاف المباركية والمباركية سلفهم [٤] .

قلنا إن الحسين الأهوازى أو الحسين بن عبد الله بن ميمون قد ذهب إلى مقابلة حمدان . وتذكر لنا قصة مقابلة الحسين الأهوازى لحمدان وكأنها مصادفة بحتة «وكان حمدان من أهل الكوفة ، وكان يميل إلى الزهد . فصادفه أحد دعاة الباطنية فى فريق ، وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها . فقال حمدان لذلك الداعى وهو لا يعرفه : أين مقصدك ؟ فذكر قرية بحمدان فقال له : اركب بقرة

---

(١) الطبرى : ٢١٢٢–٢١٣٢ .

(٢) برنارد لويس : أصول الإسماعيل ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨٣ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٧٢ .

(٤) المجلسى : بحار الأنوار ٩ / ١٧ وانظر لويس : أصول ص ١١٢ .

من هذه لئلا تتعب . فقال ؛ إنى لم أؤمر بذلك . فقال ؛ وكأنك لا تعمل إلا بأمر . قال : نعم . قال . وبأمر من تعمل ؟ قال . بأمر مالكى ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . فقال : ذلك إذن هو رب العالمين . قال : صدقت . قال . فما غرضك فى هذه القرية التى تقصدها ؟ فقال : أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة . وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر وأملكهم ما يستغنون به عن الكد . فقال حمدان : أنقذنى أنقذك الله وأفض على من العلم ما تحيينى به ، فما أشد احتياجى إلى مثل هذا . فقال : ما أمرت أن أخرج السر المخزون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه فقال : اذكر عهدك ، فإنى ملتزم به . فقال له : أن تجعل لى وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ، ألا تخرج سر الإمام الذى ألقيه إليك ولاتفش سرى أيضاً ، فالتزم حمدان عهده ، واندفع الداعى فى تعليمه فنون جهله ، حتى استغواه ، فاستجاب له ، ثم انتدب للدعاء ، وصار أصلا من أصول هذه البدعة ، فسمى أتباعه القرامطة والقرمطية »[1] .

وهكذا صور المؤرخون مقابلة الحسين الأهوازى لحمدان قرمط وتحوله إلى الإسماعيلية . ولكن من الثابت أن دعوة حمدان قرمط إلى المذهب الإسماعيلى كانت أخطر من هذا بكثير ، إذ أن عبد الله بن ميمون وضع ابنه على بن عبد الله فى الطالقان ليكون نقطة الاتصال بينه وبين حمدان وعينا فى الوقت نفسه عليه . يقول ابن رزام : « بعث عبد الله بن ميمون الدعاة إلى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، لقصر كان فى متنه وساقه ، وكان قرمط هذا أكاراً بقاراً فى القرية المعروفة بقس بهرام ورأى قرمط ، وكان داهيا . ونصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ، وأكثرها منحول ، وفرق عبدان الدعاة فى سواد الكوفة . وأقام قرمط بكلوذاى ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان »[2] .

أما السبب فى هذا ، فهو أن حمدان قرمط لم يأخذ بالدعوة الإسماعيلية كاملة . وإنما أخذها فى صورة كيسانية .

كانت الكيسانية فى عهد حمدان قرمط تؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن الحنفية وتوقفت فيه ، وآمنت أنه المسيح المنتظر . فلما اتصل حمدان قرمط بالإسماعيلية قدم نفس المذهب ، غير أنه استبدل أحمد بن محمد بن الحنفية بمحمد بن إسماعيل والقمى وهو من أدق من يحدثنا عن عقائد الشيعة يقول إن القرامطة خالفوا المباركية الإسماعيلية فى أنهم قالوا « لا يكون بعد محمد النبى ﷺ إلا سبعة أئمة : على بن أبى طالب وهو إمام رسول والحسن والحسين وعلى بن الحسين . ومحمد بن على وجعفر بن محمد

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٩ .

ومحمد بن إسماعيل بن جعفر «وهو الإمام القائم المهدى وهو رسول» وزعموا أن النبى ﷺ انقطعت عنه الرسالة فى حياته فى اليوم الذى أمر فيه بنصب على بن أبى طالب عليه السلام للناس بغدير خم ، فصارت الرسالة فى ذلك اليوم فى على بن أبى طالب واعتلوا فى ذلك بقول رسول الله ﷺ وآله «من كنت مولاه فعلى مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه فى ذلك لعلى بن أبى طالب بأمر الله عز وجل ، وأن النبى ﷺ بعد ذلك كان مأموما لعلى محجوجاً له ، ولما مضى عليه السلام انتقلت الإمامة إلى الحسن ثم إلى الحسين ، ثم إلى على بن الحسين ، ثم فى محمد الباقر ، ثم كانت فى جعفر الصادق . وانقطعت الرسالة عن جعفر فى حياته ، كما انقطعت عن النبى ﷺ ، فى حياته ، ثم إن الله بدا له فى إمامة جعفر وإسماعيل «فصيرها فى محمد بن إسماعيل «وزعموا أن محمد بن إسماعيل حى لم يمت وأنه فى بلاد الروم . وأنه القائم المهدى ، وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ ، وأن محمد بن إسماعيل من أولى العزم وأولو العزم عندهم سبعة ، (وهذا ما أخذوه من الإسماعيلية) نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلى ومحمد بن إسماعيل ، على معنى أن السموات سبع وأن الأرضين سبع . . . إلخ . ويذكر النوبختى أنهم آمنوا بالقائم إيماناً تاماً وأنهم أوردوا الأخبار عن الصادق فى هذا «لو قام قائمنا علمتم القرآن جديداً» (١) .

هنا تتبين لنا صورة العقائد القرمطية الأولى ، وهى توازى تماماً عقائد الكيسانية أو الحنفية التى أوردناها من كتابهم فى أول هذا الفصل ، فلما ظهر عبيد الله المهدى حجة الإمام ، مدعيا أنه المهدى المنتظر ، ثار حمدان قرمط وداعيته عبدان . ولم يتنبه معظم الباحثين — إن لم يكن كلهم — إلى أن إسماعيلية القرامطة كانت مختلفة عن إسماعيلية المركز الرئيسى فى سلمية ، كان المركز يعلم أن هناك إماما حيا ، وأن هناك حجة له فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لسعيد بن الحسين بن عبيد الله القداح ليكون ستراً أو مستودعاً لابنه القائم ، كما سنفسر هذا فيما بعد ، انتقض قرامطة السواد وعلى رأسهم حمدان قرمط ، أول زعيم للقرامطة وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطى المشهور ، وسافر عبدان لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبد الله المهدى . وسأله عن الحجة وعن الإمام من بعده فقال سعيد أى المهدى لعبدان : ومن الإمام ؟ فرد عبدان بعقيدة القرامطة «محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذى كان أبوك يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبى وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه» (٢) .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن قرامطة السواد كانوا لا يؤمنون سوى بمحمد بن إسماعيل مهد:

---

(١) القمى : كتاب المقالات ص ٨٣ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) نقل هذه النصوص إلينا الدكتوران حسن إبراهيم ، وطه شرف عن النويرى : نهاية الأرب المخطوط : ص ٧٨٥

الأمة . وستبقى هذه العقيدة مدة طويلة بعد عند بعض طوائف قرامطة البحرين ، كما ستبقى الحنفية أى موالاة محمد بن الحنفية وأولاده لديهم منتشرة بعنف .

وقد حاول الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أن يستنتجا من انتقاض حمدان وعبدان على سعيد القداح نتيجة هامة وهى أن الإمام المستور لم يكن معروفاً للقرامطة ، على حين أن الذى كان يتراسل معهم هو الحجة الذى كان يقر فى مكاتباته معهم بأنه نائب عن الإمام لا الإمام . وهذه النتيجة غير صحيحة بإطلاق ، بل تحتاج إلى تعديل كبير وهى : أن قرامطة السواد لم يعرفوا أبداً إماما مستوراً، بل كانوا يعرفون إماماً واحداً غائباً ، إماماً مهديًا ، هو محمد بن إسماعيل .

أما القسم الثانى من دعوة حمدان بن الأشعث ، فكان التنظيم النقابى أو التنظيم الاجتماعى لحياة أتباعه ، ففرض عليهم عدة ضرائب وجبايات تصاعدية أو متدرجة . ثم فرض عليهم الألفة وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا أسرة واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه وتلا قوله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا» وتلا عليهم قوله تعالى «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم» وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال لهم : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ، لنعلم كيف تعلمون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة ، فى كل قرية ، رجلا مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . فكان يكسو عاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم . وأخذ كل رجل منهم بالانكفاء على صناعته والتكسب بجده ، كيلا يكون له الفضل فى رتبته . وكانت المرأة تجمع إليها كسبها من مغزلها والصبى أجر نطارته الطير . فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله ، وصبوا إليه ، وعملوا به . أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ، ويختلطن بالرجال . وقال : إن ذلك من صحة الود والألفة منهم (١) .

وقد عدد المقريزى هذه الضرائب ، ضريبة الفطرة ، وضريبة الهجرة وضريبة البغلة ثم ضريبة الخمس (٢) .

وقد أراد حمدان بهذه الاشتراكية المالية نشر السلام بين أتباعه ، وأن يكون «دولة الله» أما الاشتراكية الاجتماعية فقد نسبها أهل السنة إلى القرامطة والإسماعيلية ، فقد ربطوا بين المزدكية وبين القرامطة والإسماعيلية . وقد ذهب نظام الملك – مؤلف سياسة نامة – إلى أن الإسماعيلية هى استمرار

(١) النويرى : نهاية الأرب – مقتطفات عن لويس فى أصول الإسماعيلية ص ٢٠١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤ .

للمزدكية فى العصر الساسانى . ويرى أن خرمة امرأة مزدك هى التى أنشأت الفرقة الخرميدينية فى أواخر الدولة الأموية ، وأن عمار بن بديل المعروف بخداش – وهو داعية العباسى فى فارس – كان من أتباعها ، وأن آراءه الإباحية لم تنته بقتله ، بل ظهرت لدى الفاطمية أتباع فاطمة بنت أبى مسلم الخراسانى وابنها فيروز ، ثم لدى فرق الأبى مسلمية أتباع مسلم نفسه . بل إن أبا مسلم فى رأى كثيرين من أهل السنة كان خرميا ، مزدكيا ، ثم سنباذ المجوسى ، وقد قام بثورته المشهورة ، كان خرميا وكذلك بستفاد أو المقنع الخراسانى . ثم ظهر بابك الخرمى مؤسس الخرمية أو الخرميدينية الأواخر ، محدداً لآراء الخرمية الأوائل أتباع خرما .

وقد بقيت آراء مزدك الاشتراكية فى العصر الأموى كامنة ، ثم ظهرت فى العصر العباسى الأول ، لدى فرق الأبى مسلمية ، وفى العصر العباسى الثانى نفذت إلى أعماق المذهب الإسماعيلى عامة والقرمطى خاصة . ومن المؤكد أن مزدكا نادى باشتراكية المال ، ولكن من المشكوك فيه أنه نادى باشتراكية النساء . ولا يوجد نصوص واضحة تؤكد هذا . ومن المشكوك فيه أيضاً أن ينادى حمدان ابن الأشعث بهذه الاشتراكية الاجتماعية ، أى اشتراكية النساء . إنه ينبغى أن نعترف أن النظام المالى الاشتراكى الذى أقامه حمدان قرمط نجح أكبر نجاح فى سواد الكوفة ، كما نجح فى البحرين فيما بعد . وأقام مجتمعاً قويًّا أقلق الدولة العباسية التى كانت غارقة فى الملذات ، وفى الفوضى ، وكاد أن يقضى عليها .

ومن الخطأ البالغ أن يقال إن هذا النظام الاشتراكى كان من صنع الأئمة فى سلمية – إنه لم يكن إسماعيليًّا على الإطلاق . لقد كان قرمطيًّا فقط ، وضعه حمدان قرمط ، ثم انتشر فى البحرين ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد انتشر فى اليمن ، بعدَ أن شق على بن فضل عصا الطاعة على عبيد الله المهدى – وأنشأ مجتمعاً قرمطيًّا بحتاً .

أخذ حمدان بن الأشعث يرسل الدعاة إلى البلاد القريبة منه – فأرسل أبا سعيد الجنابى ، وكان من مستجيبة حمدان كما يذكر البغدادى – إلى البحرين [1] وتغلب عليها كما أرسل زكرويه بن مهرويه الدندانى إلى شمال العراق ، وكان من تلامذة حمدان ، وظهر مأمون أخو حمدان بأرض فارس – وقرامطة فارس يقال لهم المأمونية لأجل ذلك [2] .

أما أهم دعاته ، فقد كان صديقه وصهره الداعى عبدان . وقد أنشأ سويا « دار الهجرة » حين تحولا إلى المذهب الإسماعيلى القطعى – أى القطع بإمامة محمد بن إسماعيل . وكانت دار الهجرة أو « مدينة الله » مثلا من أكبر الأمثلة فى إدارتها واشتراكيتها . وكان أمر الدعوة إلى عبدان ، صاحب الكتب

(١) البغدادى : الفرق ١٦٩ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٧٠ .

المصنفة كما يسميه ابن رزام . ويذهب ابن رزام أيضاً إلى أن الدعاة إلى اليمن وفارس والأحساء صاروا من جهة عبدان خليفة قرمط وصهره . وقد كتب عبدان كتباً كثيرة . ويذكر ابن النديم أن لعبدان فهرساً يحتوى على ما صنفه من كتب علاوة على أن «كل من عمل كتبا نحله إياها» وهذا يدل على أن الرجل كان داعية القرامطة الأول .

ويذكر له ابن النديم من الكتب – كتاب الرحا والدولاب ، كتاب الحدود والإسناد ، كتاب الزاهر ، كتاب الميدان ، ومن كتبه الكبار – كتاب النيران وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد . ويقول ابن النديم إن هذه الكتب هى الموجودة والمتداولة – أما باقى ما فى الفهرست ، فقل مارآه أو عرفه إنسان أنه رآه . ثم يذكر كتاب البلاغات السبعة . ويذكر أنه قرأه ، ورأى فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها [1] . ولكن ابن النديم لا ينسبه إلى عبدان ، بل ذكره بين قائمة كتب عبدان منسوباً للإسماعيلية .

وحين انتقض حمدان على عبيد الله المهدى صديقه عبدان كما قلنا لسلمية ، ثم يسرع على ابن عبدالله بن ميمون إلى سواد الكوفة ، ليلقى عبدان ، ويدور الحديث بينهم فى شدة واحتداد – ويخبره عبدان أنهم قطعوا الدعوة الإسماعيلية وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم ، وادعى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب كذبا ، ودعا إلى المهدى ، فكنا نعمل لذلك ، فلما تبينا أنه لا أصل له ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر ، تبنا إلى الله مما تحملنا ، وحسبنا ماكفرنا أبوك : فتريد أن تردنا كفاراً ، انصرف عنا إلى موضعك» [2] .

ولكن هل عاد القرامطة فى سواد الكوفة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تساءل الدكتور حسن إبراهيم إنه يقول : لو أنه فعل ذلك لما سكت المؤرخون السنيون» . والرأى الصحيح عندى أن أتباع حمدان وعبدان عادوا إلى الكيسانية المسالمة إلى عقيدة مهدية أحمد بن محمد بن الحنفية .

ولكن على بن عبد الله بن ميمون قداح الطالقان أسرع إلى الميدان ، وأتى بذكرويه بن مهرويه داعية حمدان قرمط وعبدان حوالى سنة ٢٨٦ هـ وقتل حمدان أو اختفى ، ولعله أراد أن يتغيب ، كما تغيب إمامه القديم مهدى الزمان محمد بن الحنفية وأبناؤه ثم قتل عبدان بيد أبناء زكرويه . وبالرغم من تخلى حمدان وعبدان وأتباعهما عن الإسماعيلية ، وعودتهما إلى الكيسانية ، فقد بقيت مجموعة من القرامطة تدين بالولاء لحمدان ولعبدان ولكنها تؤمن بمحمد بن إسماعيل فترى الداعى بن مليح يبقى موالياً للإسماعيلية وقد قام هذا الفريق الموالى بثورة على العباسيين بسواد الكوفة فى سنة ٢٨٧ ، ٢٨٩

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٣ ، ورقة ٧٠ ، وانظر الدكتور حسن إبراهيم : عبيدالله المهدى ص ٩٥ .

تحت قيادة أبى الفوارس وكان من أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، كما قام أبو حاتم البورانى – زعيم البورانية الإسماعيلية وخليفة أبى الفوارس بثورة عامة فى سواد الكوفة على العباسيين .

قرامطة الشمال : دفع قداح الطالقان زكرويه بن مهرويه إلى قتل سيده عبدان ، وقد كان زكرويه من دعاة عبدان المباشرين ، ثم عينه على بن عبد الله رئيساً لقرامطة السواد ، ولكنه اضطر إلى الفرار واختفى فى قرية من قرى السواد . وقد رأى أن أعداءه يحيطون به من كل جانب فالعباسيون فى أثره ، وأنصار حمدان وعبدان وراءه يتبعونه ، والمهدى فى سلمية لا يريده ، فقد عين بغير أمره . علاوة على أن استتاره كان يخفى وراءه غاية أخرى – وهو إعلان إمامته هو . وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ، كما انتسب أولاده ، وأن يحاول إنشاء دولة فاطمية فى سوريا .

اختفى أبو محمد زكرويه داعى الكوفة عام ٢٨٦ هـ . وتقدم أولاده الثلاثة للعمل وهم أبو القاسم يحيى : صاحب الناقة ، وأبو مهزول الحسين صاحب الشامة وأبو العباس . ولما عزلهم أبو الحسين بن الأسود داعى المهدى سعيد القداح من دعوة الكوفة اجتمع الإخوة الثلاثة وتعاهدو على الذهاب إلى سلمية لقتل ابن البصرى – أى المهدى « هذا الذى كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا نتركه . وقالوا : حتى ينقطع ذكر على بن أبى طالب من هذه الدنيا . ونقتل بعده أبا الحسين » .

أما عقائد زكرويه وأولاده ، فيبدو أنها قريبة جداً من آراء قرامطة السواد . ولا غرابة فى هذا فقد كان زكرويه من دعاة عبدان : وهذه الآراء هى إمامة محمد بن إسماعيل ونبوته أى أنهم توقفوا فيما بعده من الأئمة ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن سعيداً الخير هو حجة الإمام الغائب ، فلما أعلن سعيد إمامته هو ، انضم إليه زكرويه وأولاده طمعا فى المناصب وأملا فى أن يخلفوا هم حمدان وعبدان ، وقتلوهما ، فلما عزلهم سعيد الخير بواسطة أبى الحسين بن الأسود داعيه ، عادوا إلى مذهبهم القرمطى ، وانتسبوا هم أنفسهم إلى محمد بن إسماعيل . وأعلن يحيى بن زكرويه أو القاسم بن محمد عام ٢٨٩ أنه صاحب الزمان وأنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه مهدى آخر الزمان ، وأن ناقته مأمورة ، فإن تبعوها ظفروا – فسمى بصاحب الناقة ، وأن أباه المعروف بأبى محمود داعية له . ودعاه أتباعه « بالشيخ »[1] . وألاحظ هنا أنه يستخدم مصطلحاً كيسانيًّا حنفيًّا وهو مصطلح صاحب الناقة . وقد رد هذا المصطلح فى كتاب الحنفية الذى أوردنا بعض عبارته من قبل .

وهكذا نرى أن مهدى الزمان قد ظهر فى الكوفة . ثم انتقل إلى بادية الشام ، وكانت إسماعيلية ، محاولا إنشاء الدولة الفاطية فى سوريا . ظهرت أسرة أخرى منافسة لعبيد الله المهدى سعيد القداح وأسرة القداح فى ادعائها حجية الأئمة المستورين . فهم إذن كيسانية إسماعيلية ، أى آمنوا بمحمد بن

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢٢١٨ .

إسماعيل على طريقة الكيسانية ، أى أنه القائم الذى سيعود ، ثم حين ادعى سعيد الخير القداحى الإمامة وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ادعوها هم أيضاً وقبل وصول إناء زكرويه إلى سورية ، غادر المهدى سلمية عام ٢٨٦ مع الإمام المستقر أبى القاسم ، الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد سعيد الخير فيما بعد .

أعلن أبناء زكرويه آراءهم فى شمال سوريا ، وأباحوا أيضاً الأموال لأتباعهم « وحملوا بنى العليص على صريحيهم ، فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم . وضرب يحيى بن زكرويه نقوداً نقش على وجه منها « قل جاء الحق وزهق الباطل ، وعلى الوجه الآخر « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » ويقول المسعودى إن دعوته نالت كثيراً من النجاح حتى تقرمط أكثر من كان حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها »[1] .

وقد أورد برنارد لويس عن ثابت بن سفيان الصابئ الخطبة التى ألقيت فى حمص بعد أن احتلها يحيى الشيخ سنة ٢٩٠ هـ . وها هى نصها « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدى صاحب الوقت أمير المؤمنين المهدى . اللهم املأ الأرض به عدلا وقسطا ودمر أعداءه – اللهم دمر أعداءه »[2] وظن لويس أن هذه الخطبة إسماعيلية خالصة وبخاصة أن أبناء زكرويه أعلنوا فى سوريا أنهم فواطم كما يذكر الطبرى[3] . وهذا خطأ . فأبناء زكرويه أتو إلى سوريا لقتل عبيد الله سعيد القداح الذى ادعى المهدية ، فالخطبة قطعاً ليست له . علاوة على أن التأمل الذاتى أو النقد الباطنى للخطبة ، إنما يدل على روح كيسانية أو حنفية وهى التى تؤمن بانتظار المهدى الغائب ، وهو محمد بن الحنفية أو أبناؤه من بعده ، ثم صبغت بصبغة إسماعيلية . أما الإسماعيلية الخالصة فهى لا تنادى بغائب على مر الأجيال ، وإنما بمستتر حى ، لم يأن أوان ظهوره بعده . فالخطبة ذات أساس كيسانى حنفى فى الباطن ، مع مسحة إسماعيلية ظاهرة .

أما انتساب أبناء زكرويه إلى الفاطميين وتسمية الحسين بن زكرويه باسم محمد أو أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل وابن عمه باسم عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل ، فقد فعلوا هذا فقط كسباً للأنصار فى منطقة سلمية وبقية المدن السورية ، وكانت الدعوة الإسماعيلية منتشرة فيها ، وبخاصة أحياء كلب فى بادية الشام ومحاربة المهدى عبيد الله الذى فر منهم هارباً إلى الرملة وادعى أيضاً نسباً لمحمد بن إسماعيل وقد أخطأ لويس مرة أخرى حين قال « أما زكرويه وأبناؤه – فإما أن يكونوا قداحيين أو

---

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٢٢ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ .. ص ٢٢١٩ ، ٢٢٥٧ .

أن الأئمة – وهى الأرجح – قد خولوا لهم التسمى بالإمامة ليجسوا النبض ويميطوا العقبات الأولية» ومن الثابت أن زكرويه كان من دعاة عبدان وعلى صلة مباشرة به ، ثم انقلب عليه بإيحاء قداح الطالقان ثم انقلب على القداحية كلها حين عزل هو وأبناؤه من دعوة الكوفة وأرسل أولاده لقتل عبيدالله المهدى أو سعيد القداح فى سلمية . وتجمع المراجع الإسماعيلية على لعن زكرويه وأبنائه ، واعتبارهم خونة . ونرى النيسابورى الإسماعيلى يقول فى كتابه «استتارة الإمام» إنه لما اتصل خبر عزم انتقال أبناء زكرويه إلى بادية الشام بدعاة سعيد القداح – عبيد الله المهدى – فى بغداد «كتبوا إلى المهدى عليه السلام أن بنى أبى محمد (أى أبناء زكرويه) قد عزموا على قتلك وقتل أهلك . فإن كنت قاعداً فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك . فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، وشوا بك إلى هارون بن أحمد بن طولون وهم يقولون إنك مخالف للمذهب ويشهرون أمرك ، فاعمل على خلاص نفسك ولا تقم ساعة واحدة» [١] . وإذن أعلن زكرويه وأبناؤه أن المهدى مخالف للمذهب ، أى أنه خرج على ما عرفوه من المذهب الإسماعيلى ، وهو أن محمد بن إسماعيل هو الإمام الأخير المهدى ، فلا يحق لإنسان أن يدعى نفسه إماماً ، وأعلن أبناء زكرويه أنهم عازمون على أن يشهروا أمر «سعيد الخير» أى أنه ليس هو المهدى ، بل هو من ولد القداح .

وقتل يحيى الشيخ على أبواب دمشق ، وتولى زعامة القرامطة أخوه حسين أبو مهزول . وقد اتخذ الحسين حمص عاصمة له . وأنشأ الدولة الفاطمية الأولى قبل إنشاء الدولة الأخرى فى المغرب . وولى أقاربه ، فجعل ابن عمه قائد الجيوش وولى عهده : وسماه المدثر . وخطب الحسين على منابر دمشق باسم أمير المؤمنين وهذا دليل آخر على أن أبناء زكرويه لم يكونوا إسماعيلية خالصة . ثم قتل الحسين بن زكرويه داعى الدعاة أبا الحسين ، ثم قتل أهل عبيد المهدى جميعاً .

ولا يهمنا حروبه بعد ذلك فى الشام ولا حروب أخيه بعده . ولا قتله على أيدى العباسيين عام ٢٩٤ . وإنما يهمنا أن نبين أن قرامطة الشمال لم يكونوا على الإطلاق إسماعيلية خالصة ، بل كانوا أولا وبالذات حنفية كيسانية ، آمنت فى فترة بالمذهب الإسماعيلى على طريقة كيسانية أيضاً ، ثم انتهى بهم الأمر إلى الارتداد عن المذهب ، وحاولوا بكل الوسائل القضاء على الإمام الإسماعيلى المستودع – كما سنرى بعد – عبيد الله المهدى . وأنهم لم يكونوا من أحفاد ميمون بن ديصان كما ذكر البغدادى [٢]

أما نهاية زكرويه بن مهرويه نفسه ، فإن المقدسى فى البدء والتاريخ يذكر أن زكرويه خرج فى أيام المعتضد بالله فى قبيلة كلب على الحاج «فقتلهم وسباهم وقصد الكوفة ، فأنهض إليه السلطان جيشاً

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبيدالله المهدى ص ١٠٦

(٢) البغدادى : الفرق ١٧٤

فارسهم خمسة أشهر ، ثم ظفروا به فحملوه إلى بغداد على طريق الشهرة والنكال ، فمات في الحبس ، ثم أخرج فصلب ، فسرقه القرامطة عن خشبته »[1] وهذا يدل على أن زكرويه نفسه لم يتوقف عن الحركة وهو مستتر ، بل حاول أن يشغل جيوش الخليفة في الجنوب في الوقت الذي كان يحارب فيه أولاده في الشمال ، وتدل سرقة جثته على أيدي قرامطة بغداد أن للقرامطة كانوا أيضاً منتشرين في عاصمة العباسيين ، وأنهم كانوا على إيمان مطلق بعقائدهم ، وعلى استعداد للتضحية في سبيلها .

قرامطة البحرين :

ويبدو أن حمدان بن الأشعث أو حمدان قرمط كان أكبر شخصية باطنية في أواخر القرن الثالث ، وأن القول بأنه كان جاهلا أكاراً أو بقاراً ليس من الصحة في شيء ، كان الرجل منظما من الدرجة الأولى ، وقد قام – كما رأينا بتنظيم ما يقال له حركة القرمطة في سواد الكوفة على أساس عقائدي أولا ثم على أساس نقابي أو اقتصادي ، وأنه هو وعبدان قد أرسلا الدعاة لشمال العراق ، كما أرسلا الدعاة لجنوبي فارس والبحرين . ومن العجب أن يذكر بعض المؤرخين أنه كان صابئيًّا يقول البغدادي « ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية . واستدل أيضاً أن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم . والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياهم على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم »[2] ومع شكي في أن يكون حمدان قرمط صابئيًّا حرانيًّا ، إلا أن هذا دليل على أن الرجل كان على علم بمذاهب الصابئة الحرنانية ونحن نعلم أن هذا المذهب مذهب أفلاطوني فلسفي مع عناصر غنوصية . ثم إن نص البغدادي يذكر أن حمدان قرمط كان صاحب الدعوة بعد ميمون بن ديصان ، وبهذا جعله البغدادي موازياً لعبد الله بن ميمون ومن أصحابه . وقد تصرف الرجل تماماً كمستقبل حتى بعد تحوله من الكيسانية الخالصة إلى نوع من الإسماعيلية . يهمنا بوجه خاص هنا أن نشير إلى مجهوداته في الأحساء والقطيف والبحرين .

كان أول داعية باطني للبحرين هو يحيى بن المهدي ، ويبدو أن يحيى هذا كان هو علي بن عبد الله ابن ميمون – قداح الطالقان ، وقد تسمى – على عادة الباطنية – بأسماء مختلفة منها أبو زكريا الطامي ، ويحيى الطامي ويحيى بن علي . وأرسل حمدان قرمط في الوقت عينه داعياً آخر هو أبو سعيد الجنابي ،

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٢٦

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٧٧ .

ومن مدينة جنابة على الخليج الفارسي شرقا ، وظهر بعده (بعد حمدان قرمط) فى الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنابى وكان من مستجيبه حمدان وتغلب على ناحية البحرين ودخل فى دعوته بنونسبر» (١)

وحين انتقض حمدان على عبيد المهدى ، تابعه أبو سعيد الجنابى وقتل يحيى بن المهدى – قداح الطالقان ، واستولى على الإمارة – وبخاصة بعد اختفاء حمدان وقتل عبدان – «وأعلن أنه ممثل الإمام المهدى الذى وعد بظهوره عام ٣١٠ هـ وهو الإمام محمد بن عبد الله بن الحنفية» (٢)

وبهذا عاد أبو سعيد الجنابى إلى عقيدة الكيسانية أو عقيدة الحنفية ، كما فعل أستاذه وزعيمه حمدان قرمط حين عرف هذا الأخير بخديعة عبيد الله المهدى – ابن القداح – وكما فعل أيضاً زكرويه بن مهرويه حين رأى أن عبيد الله المهدى قد خدعهم ، ولم يبقهم حتى فى مركز الدعوة بالكوفة – فالمستشرق – كازانوفا كان على حق ، حين ذكر الإمام الذى قاتل لأجله القرامطة الأولون كان إماماً حنفيًّا من سلالة محمد بن الحنفية ، ولكنه لم يتنبه إلى أنهم صبأوا إلى إسماعيلية خاصة مقيدة ، ثم ما لبثوا أن رجعوا عنها جميعاً ، حمدان بن الأشعث وأبو سعد (الحسن بن بهرام) لأسباب عقائدية ، وزكرويه (الفرج بن عثمان القاشانى) وأولاده لأسباب مادية . وأيًّا ما كان الأمر ، فقد أعلن أبو سعيد الجنابى استقلاله عن الدعوة الفاطمية . وقد رأينا من قبل أن على بن فضل الجدنى قد ذكر فى خطابه لابن حوشب أنه ينهج نهج أبى سعيد الجنابى فى خلعه طاعة ميمون وابنه من بنى القداح ويؤيد ذلك قول ابن حوقل «وكان حمدان قرمط وأبو سعيد إذ ذاك فى دعوة السلطان حذاء أمير المؤمنين المهدى بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفا ذلك . وجرت خيوط وتخاليط كثيرة فى بعض الروايات» (٣)

أما المسعودى فيسمى قرامطة الكوفة بالبقلية ويقول إنه اسم ديانى عندهم (٤) .

فالحركة القرمطية إذن عادت إلى الحنفية فى سواد الكوفة وفى شمال العراق وكذلك فى البحرين . وفى نص ابن حوقل نفسه ، وهو إسماعيلى ، ما يثبت أن أبا سعيد الجنابى قد رجع عن معتقداته الإسماعيلية . وأقام مجتمعاً قرمطيًّا خالصاً ، سواء فى معتقداته أو فى نظامه المالى فطبق اشتراكية كاملة لا فى المال وحده ؛ بل فى نظام العمل والمجتمع كذلك . وقتل أبو سعيد الجنابى عام ٣٠٠ هـ . وتولى إمارة القرامطة ابنه سعيد ، وسرعان ما أعلن عودته إلى حظيرة أهل السنة والجماعة فى خطابه

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٩ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٠ عن نص للقاضى عبدالجبار ولم يستفد لويس بهذا النص استفادة حاسمة .

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٠–٢١١ .

(٤) المسعودى : التنبيه ص ٣٩٨ .

إلى على بن عيسى وزير المقتدر « إنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة فنحن – أيدك الله – لم ننفرد عن الطاعة والجماعة بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا . واستحل دماءنا . . . كان قديم أمرنا أنا كنا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا . ننزه أنفسنا عن المعاصى ، ونحافظ على الفرائض . فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ممن لا يعرف بدين ، وأكثروا التشنيع علينا بيننا بالسوية وأنا لا نحرم حراما ولا نحل حلالا . فخرجنا هاربين ، ومن بقى منا جعلوا فى رقابهم الحبال والسلاسل . فألجأونا إلى جزيرة ، فأرسلنا فى طلب أموالنا وحريمنا ، فمنعونا ، وعزموا على حربنا ، فحاكمناهم إلى السيف . قال تعالى « ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله » فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة . فنحن تائبون مؤمنون بالله » هذا ما أرسله سعيد بن أبى سعيد إلى وزير الخليفة يعلن تبرؤ القرامطة من أى مذهب إباحى أو اشتراكى اجتماعى .

ولكن حكم سعيد السنى لم يطل أكثر من أربع سنوات ، ويذهب النويرى فى نهاية الأرب [1] إلى أن سعيداً سلم الأمر إلى أخيه الأصغر أبى طاهر بناء على وصية والده « أوصى إليهم : أى أبو سعيد – إن حدث . أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر . وكان سعيد أكبر سناً من أبى طاهر فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم . ولما قتل – أى أبو سعيد – جرى الأمر على ما وصاهم به وكان أبو طاهر سبّ سعيد ، وكان أبو سعيد قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبى طاهر . فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة . ثم سلم الأمر لأخيه أبى طاهر – فعمل أشياء موه بها على أصحابه – فقبلوه وعظموا أمره » .

أما ابن خلدون فيذكر « ثاربه – أى سعيد – أخوه الأصغر أبو طاهر ، فقام بأمرهم – وبايعه العقدانية – وجاءه كتاب عبيد الله المهدى بالولاية » [2] والروايتان متعارضتان إلى حد ما . فبينما تذكر الرواية الأولى أن سعيداً سلم بنفسه الأمر إلى أخيه ، وكان هو بلغة الباطنية إماماً مستودعاً لأبى طاهر وكان أبوهم أبو سعيد قد تنبأ له بالسلطان – وسنرى صورة من الأساطير والتنبؤات التى أحيطت بقيام أبى طاهر – تذكر الرواية الثانية أن ثمة ثورة حدثت وأن « العقدانية » أى كبار مشيخة المذهب قد بايعوا أبا طاهر ، ثم التأييد من عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان .

ويستنتج الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أنه كان هناك فريق من القرامطة ما زال يؤمن بالمذهب الإسماعيلى . وأن هذا الفريق قام بالثورة على سعيد ووضع أبا طاهر أميراً على القرامطة عام

---

(١) النويرى : نهاية الأرب . وحسن إبراهيم وطه شرف : عبيدالله المهدى ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٨٨–٨٩ .

٢٠٥ هـ . ولكن الدكتور حسن إبراهيم وزميله ، أخطآ (كما أخطأ دوزى معهما) حين يقولان «ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ حتى نهاية حكم أبى طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله ، أضف إلى ذلك أنه كان – كما يقول دوزى – على اتصال سرى بعبيد الله ، يقر له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة – خمس الإمام ويطيعه ولا يعصى له أمرا» (١) .

وهذا خطأ كبير وتغال فى وصف طبيعة العلائق بين أبى طاهر وبين عبيد الله . ولا شك أن أبا طاهر حاول فى الظاهر فقط أن يقيم علاقات ود بينه وبين عبيد الله ، ولعله فعل هذا إرضاء لمجموعة من أتباعه بقوا على ولائهم للإسماعيلية . ولكنه نهج فى الحقيقة منهج والده أبى سعيد . وسيتبين لنا هذا من سياق الحوادث ، كما سيتبين لنا أن أبا طاهر الجنابى – سليمان بن الحسن – بقى ، بالرغم من ادعائه الظاهر أنه يؤمن بالمهدى عبيد الله – مخلصاً لآراء الكيسانية أو الحنفية ومخلصاً لمذهب أبيه أبى سعيد . الحسن بن بهرام وأستاذيه حمدان قرمط وعبدان . ولم يبحث مؤرخو هذه الفترة من دولة القرامطة حقيقتهم فى ضوءعقائدهم ، بل أهملوا هذه الناحية ، مع أنها هى التى تحدد لنا حركتهم : جوهر مبادئها وأغراضها .

أما عن اتصالات عبيد الله بن الحسين (أى عبيدالله المهدى) بأبى طاهر . فيقدم لنا البغدادى صورة منه ، وهى صورة رسائل أرسلها عبيد الله إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى ، ويقول إنه قرأها فى كتابهم المترجم «بالسياسة والبلاغ الأكيد» .

يقول عبيد الله – فيما يذكر البغدادى : ادع الناس ، بأن نتقرب إليهم بما يميلون إليه . وأوهم كل واحد منهم . فمن آنست منه رشداً ، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا . وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا نعرفه» .

ثم يذكر البغدادى أن هذا الكتاب يبطل بعد ذلك القول بالميعاد والعقاب . ويعلن أن الجنة هى نعيم الدنيا . وأن العذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد ثم يورد الفقرات الآتية من الرسالة أو من كتاب عبيد الله «إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم . وأكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم» .

ويشير البغدادى أن هذا تحقيق لنسبة الباطنية إلى الدهرية ثم يقارن بين الاثنين من خلال هذا الخطاب الذى يدعو فيه عبيد الله إلى محاولة جذب أصحاب المذاهب الفلسفية من الناس كما يحاول

(١) الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف : عبيدالله المهدى ص ٢١٨ .

أيضاً جذب الدهرية . فيقول « إن المجوس يدعون نبوة زرادشت ونزول الوحى عليه من الله تعالى . وإن الصابئين يدعون نبوة هرمس ووالیس (طالیس) وذريثوس وأفلاطون وجماعة من الفلاسفة . وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحى من السماء على الذين أقروا بنبوتهم . ويقولون إن ذلك الوحى شامل للأمر والنهى والخبر عن عاقبة بعد الموت ، وعن ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة .

ثم يرى البغدادى أن الباطنية يرفضون المعجزات ، ونزول الملائكة من السماء بالوحى والأمر والنهى ، بل ينكرون أن يكون فى السماء ، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم ، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفتهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العالم بالنواميس والحيل بدعوى النبوة والإمامة ، وأن كل نبى فيهم صاحب دور مسبع ، إذا انقضى دور سبعة ، تبعهم سبعة فى دور آخر .

ويفسرون النبى والوحى : بأن النبى هو الناطق ، والوحى أساسه الفاتق . وإلى الفاتق تأويل نطق الناطق ، على ما تراه يميل إليه هواه فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة الأبرار ، ومن عمل بالظاهر ، فهو من الشياطين الكفرة وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، يخرجه عن حقيقته ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة الإمام ، والحج زيارة وإدمان خدمته والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام والزنا عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وزعموا أن من عرف معنى العبادة ، سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

ثم يقدم لنا البغدادى – بعد هذا الشرح للفقرة التى ذكرها من رسالة عبيد الله المهدى لأبى طاهر ، فقرة أخرى من هذه الرسالة يقول فيها عبيد الله المهدى : إنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال الميعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة فى السماء وإبطال الجن فى الأرض . وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم » .

ويعلق البغدادى بأن فى هذا إثبات لفكرته هو أن فى الباطنية دهرية يؤمنون بقدم العالم وينكرون الصانع ويبطلون الشرائع .

ثم يقدم إلينا البغدادى فقرة أخرى من الرسالة عن متناقضات الأنبياء وينبغى أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت ، وأباح العمل فى السبت ، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا

قتلته اليهود لما اختلفت كلمته . ثم قال : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة ، حين سألوه عن الروح . فقال : الروح من أمر ربى ، لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة . ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهاناً . قال : لئن اتخذت إلهاً غيرى . وقال لقومه . أنا ربكم الأعلى ، لأنه كان صاحب الزمان فى وقته .

«وقال فى آخر رسالته : وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليس له زوجة فى حسنها ، فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل العاقل ليعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى . ماوجه ذلك إلا أن صاحبهم (أى محمداً عليه الصلاة والسلام) حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبداً من البعث فى القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدهم بذلك عاجلا ، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله «لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج .

«وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس ، فهنيئاً لكم ما نلتم من الراحة فى أمرهم» .

وينتهى البغدادى إلى القول «وفى هذا الذى ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات [1] » .

هذا هو نص الخطاب الذى أورده البغدادى منسوباً إلى عبيد الله المهدى القيروانى ، ويؤكد البغدادى أن عبيد الله أرسله إلى أبى طاهر الجنابى . ومن الواضح أن الرسالة باطنية وأنها مأخوذة من هذا الكتاب الذى عرفه ابن النديم وهو كتاب «البلاغات السبعة» . وقد قال ابن النديم كما ذكرنا من قبل «قد قرأته ، فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها» [2] ويبدو أنه كتاب باطنى يتحدث عن عقيدة الباطنية الفارسية وهى منفصلة تماماً عن الباطنية الإسماعيلية ، وإن كانت هناك عناصر مشتركة ، غير أن الإسماعيلية لا تقدح فى النبوات ، ولا تهاجم الرسول محمداً ﷺ وذريته ، وكذلك القرامطة ، وإنما هذا الكتاب – وهو ينسب إلى عبدان – إنما هو تعبير عن آراء الفرس الشعوبيين الذين تمثلوا فى فرق الخرمية والخرمدينية وبقايا المانوية والمزدكية والمانداثية والكثير من الفرق الغنوصية الخالصة التى لا تتصل بالإسلام أى اتصال .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٧ – ١٧٩ . (٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٢ .

ولم يكن عبيد الله المهدى من السذاجة بمكان أن يرسل لأبى طاهر خطاباً يربطه بالمجوسية الفارسية عامة ، وبإنكار للحق الإلهى الذى أضفاه هو على نفسه وأضفاه أتباعه عليه ، بانتمائه للبيت الإسماعيلى العلوى ، وهذا البيت ينتهى آخر الأمر إلى محمد ﷺ . والرسالة تهاجمه أشد هجوم ، كما تهاجم الأنبياء من قبله . فالرسالة رسالة مجوسية واضحة ، تشترك بعض عناصرها الجزئية مع جزئيات للمذهب الإسماعيلى ، ولكنها ليست إسماعيلية قطعاً ، ولم تصدر من إمام القيروان إلى أمير القرامطة .

ومن الخطأ البالغ أن يقال : إن أبا طاهر الجنابى خالف سياسة أبيه أبى سعيد ، فعمل للفاطميين ، إنه ادعى فى الظاهر فقط موالاتهم ، أما فى حقيقة الأمر ، فقد كان يعمل لنفسه ، وكما باءت حملة الفاطميين الأولى على مصر (عام ٣٠٠ – ٣٠١ هـ) بالفشل – لأن أبا سعيد الجنابى لم يفعل من ناحيته على نجاحها ، فأرسل حملة شكلية إلى الكوفة ، فلم يشغل جيوش الخليفة العباسى ، وبهذا خلا للعباسيين الأمر وفتكوا بجيش المهدى الزاحف على مصر ، فعل أبو طاهر نفس الشىء عام ٣٠٧ فقد وصل القائم (ابن المهدى – وأول الخلفاء الفاطميين على الحقيقة) إلى مصر «واستدعى أبا طاهر القرمطى وانتظره» على حد ما يقول ابن خلدون فى العبر [١] . ولكن أبا طاهر لم يحضر ، وإنما قام بحملة شكلية فاشلة على جنوب العراق كحملة والده تماماً وهزم مؤنس الخادم قائد الخليفة القائم وأعاده إلى المغرب .

وفى عام ٣١٢ هـ يتبين لنا تماماً أن أبا طاهر الجنابى كان يعمل لنفسه فى الحقيقة لا لمهدى القيروان ، فقد بدأ حملات مريعة على قوافل الحجاج ، يقتل ويسبى ويهدم المساجد السنية [٢] ، وقد ارتاع الخليفة المقتدر من هذا العمل الجرىء ، وأقلقه أن يحدث لأول مرة فى تاريخ الإسلام فكتب إلى أبى طاهر الجنابى عام ٣١٣ هـ «يتوعده على ما استحل فأجابه أبو طاهر بالخطاب الآتى ، وسيتبين منه إلى أى حد تتضح عقائد الرجل .

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين – من أبى طاهر سليمان بن الحسن الجنابى الداعى إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بآثار رسول الله ﷺ إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس .

أما بعد : عرفك الله مراشد الأمور ، وجنبك التمسك بحبل الغرور . فإنه وصل كتابك بوعيدك وتهديدك ، وذكرك ما وضعته من نظم كلامك ، وتمت به من فخامة إعظامك من التعلق بالأباطيل – والإصغاء إلى فحش الأقاويل ، من الذين يصدون عن السبيل . فبشرهم بعذاب أليم ، على حين

---

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٩ .

زوال دولتك ، ونفاذ منتهى طلباتك ، وتمكن أولياء الله من رقبتك ، وهجومهم على معاقل أوطانك صغرا ، وسبيهم حرمك قسراً ، وقتل جموعك صبراً . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، وجند الله هم الغالبون .

« هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، كالأسد الغضنفر ، فى سرابيل الظفر ، متقلداً سيف الغضب ، مستغنياً عن نصر العرب ، لا يأخذه فى الله لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . قد اكتنفه العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها ، وانقشعت طغا الظلمة ودجنة الضلالة ، وغاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

« تالله ، غرتك نفسك وأطمعتك فيما لست نائله ، وسولت لك ما لست واصله . فكتبت لى بما أجمعت عليه أذهان كتابك ، ذكرتنى بالعيوب الشنيعة وقذفتنى بالمثالب السمجة . تالله لتسألن عما كنتم تعملون .

« فأما ما ذكرت من قتل الحجيج وإخراب الأمصار وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس . وادعى طوائف منهم أنهم أبرار ، ومعاينتى منهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

« خبرنى أيها المحتج لهم ، والمناظر عنهم ، فى أى آية من كتاب الله أو أى خبر عن رسول الله ﷺ إباحة شرب الخمور ، وضرب الطنبور ، وعزف القيان ، ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام ، واحتووها من وجوه الحرام .

« وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها ، سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة .

وأما تخويفك لى بالله وأمرك بمراقبته ، فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك أترى أنى أجهل بالله منك ، وصرفك أموال المسلمين للصفاعنة والضراطين ومنعها عن مستحقيها . يدعى على المنابر للصبيان ، ويخطب للخصيان . آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟

« وأما ما ذكرت أنى تسميت بسمة عدوان ، فليس أعظم من تسميك بالمغيث لله ، أمير المؤمنين ، أى جيش صدمك فاقتدرت عليه ، أم أى عدو ساقك فابتدرت إليه . لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين ، وإنك لتقلد بعض خدمك شيئاً من أمرك ، فيكاتبه الشريف والرئيس بالسيد

والمولى ، فأى الأمرين أقرب للتقوى ، أو ما علمت أنه من انقاد له نفر من عشيرته وعصابة من بنى عمه وأسرته ، فقد سادهم وعلا فيهم .

« وبعد – فالك وللوعيد ، وللإبراق والتهديد . اعزم على ما أنت عليه عازم ، وأقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورائى ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وصلى الله على خير بريته وآله وعترته » (١) .

وقد أوردت النص الكامل لخطاب أبى طاهر لكى أبين أنه لا يحتوى على عقيدة غير إسلامية ، بل إنه يهاجم الخليفة لفساده وفساد حاشيته ، ثم يبرر ما يفعله هو ، بأنه يهاجم مساجد لا يذكر فيها اسم الله . أو بمعنى أدق إنه يتكلم – كشيعى خارجى ينكر أسانيد الشيوخ – ونحن نعلم أنها أسانيد السنة ويرى أنهم يخفون الحق بفعلهم هذا . ثم ينكر فجور الناس وتهتكهم وخمرهم وزناهم ولواطهم . وعجباً أن يفعل هذا وأن ينقله إلينا الحامدى اليمانى ، وهو الذى اتهمهم بالتحلل والتهتك والزنا واللواط . ولقد كان المسعودى – شاهد عيان لحركتهم ، بل كان فى هيث ، حين حاصرها أبو طاهر . ويذكر المسعودى أنه « كلم غير واحد من دعاتهم ، وذوى المعرفة منهم . فلم أر مثله دراية وتحصيلا وتديناً بما هو عليه » وحسن إتقان للسياسة التى تكون مع الدعاة (٢) .

ولم يذكر أبو طاهر فى خطابه شيئاً من عبيد الله ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور باحث ممتاز كالدكتور حسن إبراهيم حسن أن أبا طاهر إنما يشير بفقرته « وقد خرج عليك الإمام المنتظر كالأسد الغضنفر » إلى عبيد الله المهدى . ولم يتنبه الدكتور حسن إبراهيم وزميله الدكتور طه شرف إلى أن أبا طاهر ، إنما يقصد نفسه هو : وأنه هو هذا الإمام ، أو حجة الإمام وسيتبين هذا بوضوح أكثر – بعد قليل .

كانت الأساطير تتناقل فى هذا الوقت بظهور المنتظر ، ويذكر المقدسى أنه سمع المجوس يذكرون واحداً منهم يخرج ، فيرد الملك إليهم (٣) ويذكر البغدادى أنه لم يجد على ظهر الأرض مجوسيًّا إلا وهو موال للباطنية منتظر لظهورهم وظفرهم على البلاد الإسلامية « يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك . وبما استدل أغمرهم على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادشت أنه قال – لكشتاسف : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ، ثم يعود إلى الفرس ، ثم يزول عن الفرس إلى العرب . ثم يعود إلى

---

(١) اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، ٢٥ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٣ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٢ ص ١٩٤ .

الفرس : وساعده جاماسب المنجم على ذلك . وزعم أن الملك يعود إلى العجم لتمام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت » (١)

وقد أورد البيرونى هذه الأسطورة أيضا . فقال « ولئن كان هذا الوقت هو الذى عناه جاماسف وزرادشت فقد أصابا فى الوقت . فقد كان ذلك فى آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر . وقد تم لزرادشت ألف وخمسمائة سنة . ولئن أخطآ فى عودة الدولة للمجوس » (٢) ويذكر البغدادى أنه كان فى الباطنية رجل يعرف بأبى عبد الله العردى – ويسميه البيرونى العدى – يدعى علم النجوم ويتعصب للمجوس . وقد ألف كتابا ذكر فيه أن القران الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر وهو نوبة المشترى والقوس وأنه عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية ويستولى على الأرض كلها . وادعى أنه يملك مدة سبع قرانات ويستند فى هذا على نبوءة لزرادشت وجاماسب فى زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية فى أيام الإسكندر . وقد تحقق هذا ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة . ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب . وسيعود إلى العجم لتمام المدة التى ذكرها جاماسب وقد وافق الذى ذكروه أيام المكتفى والمقتدر ولكن أخلف موعدهم . وما رجع الملك فيه إلى المجوس ثم كانت القرامطة قبل هذا الميقات يتواعدون فيما بينهم ظهور المنتظر فى القرن السابع فى المثلثة الثانية . وخرج منهم سليمان بن الحسن من الإحساء على هذه الدعوى (٣) .

وهذا يثبت تمام الإثبات أن أبا طاهر خرج داعياً لنفسه لا لعبيد الله . وأن القرامطة كانوا ينتظرون خروج الإمام . وأن أبا سعيد نفسه قد قرأ بعض هذه الأساطير واعتبرها منطبقة على ابنه أبى طاهر « فأخبرهم أنه سيملك الأرض . وقد ذكر الحمادى أن أبا سعيد كان فيلسوفاً ملعوناً ملك البحرين واليمامة والإحساء . وادعى فيها أنه المهدى القائم بدين الله (٤) .

أما البيرونى . فقد ذكر أيضاً رواية عبد الله العدى فقال « أخطأ أبو عبد الله العدى المتعصب للمجوسية جهلا ، والراجى لخروج القائم دهراً . وذلك أنه صنف كتاباً فى الأدوار والقرانات ، ذكر فيه أن القران الثامن عشر من مولد محمد عليه الصلاة والسلام يوافق الألف العاشر وهو للمشترى والقوس . فحكم على أنه يخرج إنسان يعيد دولة المجوسية . ويستولى على الأرض كلها ويزيل ملك

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .

(٢) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .

(٤) الجنابى : كشف أسرار . . . ص ٢٠ .

العرب وغيرهم ، ويجمع الخلق على دين واحد وأمر واحد ، ويزيل الشر ويملك مدة سبع قرانات ونصف ، ونص على أنه لا يملك من العرب ملك بعد الذى يجلس فى القرن السابع عشر ، وليس يقتضى الوقت الذى أشار إليه إلا المكتفى والمقتدر ، ولم يف بالموعود بعدهما (١) » .

ويرد البيرونى أن عقيدة القرامطة كانت مزيجاً من بعض مذاهب أهل الباطن والتشيع لآل البيت عليهم السلام ، ويتواعدون ظهور المنتظر فى القرن السابع فى المثلثة النارية ، ثم يذكر أن أبا طاهر اعتقد أنه هو هذا المنتظر وهذا دليل على أنه لم يؤمن أبداً هو ومجموعة القرامطة الكبرى بعبيد الله إماماً منتظراً . ولقد أخطأ برنارد لويس ، كما أخطأ حسن إبراهيم خطأ كبيراً فى اعتبارهما للقرامطة إسماعيلية أو أتباعاً لهم . وكذلك ماسينيون الذى اعتبر الحركتين واحدة .

وفى عام ٣١٧ هـ هجم أبو طاهر على مكة ، وقتل وسبى ، واقتلع الحجر الأسود وحمله من مكة إلى الإحساء وقال :

ولو كان هذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية ... مجللة لم نبق شرقا ولا غربا
وإنا تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لا تبغى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله ... لم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا (٢)

وضرب أحد كبار رجال أبى طاهر الحجر الأسود وقال «كم تعبد فى الأرض وآل محمد لا يظهرون» وهنا يتبين لنا بوضوح وجلاء أن القرامطة هاجموا الكعبة وحملوا الحجر الأسود لاعتقادهم أن الحج باطل بدون ظهور الإمام من آل محمد ، ومعنى هذا أنهم لم يعتبروا عبيد الله مهدى الزمان بل كانوا فى الانتظار بعد .

ومن المهم أن نلاحظ أن عبيد الله المهدى أعلن هو نفسه تبرؤه من أبى طاهر ومن أخذه للحجر الأسود وقتل الحجيج . فبعث إليه منكراً لاعناً قائلا : «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة . فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة» (٣) .

ولم يستجب أبو طاهر لهذا الأمر ، بل بقى الحجر الأسود فى هجر عاصمة أبى طاهر اثنتين وعشرين سنة ، أى بقى بعد موت أبى طاهر بسبع سنوات وبعد موت عبيد الله المهدى نفسه بسبع عشرة سنة .

---

(١) البيرونى : تحقيق . . ص ٢١٤ .
(٢) اليمانى : كشف أسرار . . ص ٢٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٧١ .

ثم نقل إلى الكوفة حيث رده عام ٣٣٩ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى [١] .

وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين أن يثبتوا أن اقتلاع أبى طاهر للحجر الأسود إنما كان بأمر عبيد الله وإيحائه . وأنه إنما أرسل رسالتين لأبى طاهر – إحداها ظاهرية ينكر عليه فعله والثانية سرية يأمره فيها بعدم إعادة الحجر الأسود إلى مكانه [٢] . ولكنى أشك كل الشك فى هذا . فلم يكن اقتلاع الحجر الأسود مما يفيد فى شىء ، بل على العكس كان يثير عليهم ثائرة العالم الإسلامى كله وبخاصة مصر ، وكان الفاطميون على وشك معاودة الكرة على العباسيين فيها ؛ بل إن اقتلاع الحجر الأسود سبب فعلاً إثارة نوع من الجهاد المقدس ضد عبيد الله نفسه ، وتسبب أيضاً فى فشل حملته الثالثة . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية العقائدية ، فليس فى عقائد الإسماعيلية هدم الكعبة . ولو أرادوا الاعتداء على الكعبة لأمروا على بن فضل أو ابن حوشب أن يقوما بهذا العمل . حقًّا إن الدروز يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله سيعود وسيهدم الكعبة ، وينقل القبلة إلى بيت المقدس ؛ ولكن العقائد الدرزية ليست عقائد إسماعيلية معتلة وهى متأخرة عن هذا العصر الذى نعيش فيه .

وهنا نتساءل : ماذا كانت غاية أبى طاهر الجنابى من اقتلاع الحجر الأسود ؟ يذهب مؤرخو السنة إلى أنه فعل هذا تدعيماً للفكرة الباطنية المجوسية من إبطال الحج ، وهدم الكعبة ، وإظهار عبادة النار ، وأنهم لما لم يتمكنوا من إظهار هذه العبادة ، احتالوا وقالوا للمسلمين « ينبغى أن تجمر المساجد كلها . وأن تكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند والعود فى كل حال .

وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار [٣] ، ومما يؤيد هذا الرأى ظهور زكريا المجوسى عام ٣١٧ وتوليته أمر القرامطة . غير أنه من البعيد أن تكون هذه غاية أبى طاهر . فلم نسمع أنه أقام فى الكعبة شعائر أو طقوساً مجوسية ، كما أنه لم يفكر فى هدم البيت الحرام . بل إننا نرى أنه بعد أن حمل الحجر إلى هجر ، نقله إلى مسجد الكوفة الجامع وعلقه به . فكان غاية أبى طاهر إذن أن يوقف فريضة الحج ، وأن يعرقلها ، ذلك لأن الحج إنما كان يؤدى على طريقة أهل السنة . وباسم الخليفة العباسى عدو آل البيت . وكان أبو طاهر وأتباعه على يقين من أن دور الإمام المنتظر ، سواء أكان هو أو أحد أفراد البيت العلوى ، قد أطل زمانه .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٥ .

(٢) الدكتوران حسن ابراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٤ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .

والحج عند الشيعة – وكل اجتماع خطبة وصلاة جمعة – إنما باسم الإمام ، ولما كان الإمام لم يظهر بعد . فلا حج ولا جماعة .

هذا هو السبب الحقيقى لنقل الحجر الأسود إلى هجر ثم إلى الكوفة . وإن كان هذا السبب لا يمنع من أن عدداً لا يستهان به من أتباع أبى طاهر كانوا مجوساً وكانوا يرون فى نقل الحجر الأسود انتقاماً من الإسلام ونبيه ، ومحاولة للقضاء عليه وعلى طقوسه ، ولكن لم تكن هذه أبداً غاية أبى طاهر . ولقد أفزع اقتلاع الحجر الأسود من مكانه فى الكعبة العالم الإسلامى كما قلنا شيعة اثنا عشرية وسنة بل فاطمية إسماعيلية . واستنكره عبيد الله فى خطاب شديد اللهجة إلى أبى طاهر .

وفى عامى ٣١٥ – ٣١٦ بدأ أبوطاهر الجنابى مهاجمته للعراق . وسار حتى شمالها . ولكنه ارتد منهزما حتى عاصمة ملكه هجر . فكتب لأهل العراق قصيدة يقول فيها :

أغركم منى رجوعى إلى هجر ... وعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابل ... وقارنه النجمان فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة ... بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر
فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة ... يساقون سوق الشاة للذبح والبقر
ألست أنا المذكور فى الكتب كلها ... ألست أنا المنعوت فى سورة الزمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... إلى قيروان الروم والترك والخزر
أكيل لهم بالسيف حتى أبيدهم ... فلا أبقين من نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعى للمهدى لاشك أننى ... أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر
ولكنه حتم علينا مقدر ... فننفى ويبقى خالق الخلق والبشر
وأعمر حتى يأتى عيسى بن مريم ... فيحمد آثارى ويرضى بما أمر
ففى جنة الفردوس لاشك مربعى ... وغيرى يصلى فى الجحيم وفى سقر [1]

ويبدو أن كثيرين من المؤرخين المحدثين لم يتبينوا حقيقة هذه الأبيات وظنوا أنها إشارة إلى عبيد الله المهدى . وهذا خطأ فاحش .

فالقصيدة كيسانية أو حنفية بحتة . وقد تنبه البغدادى إلى هذه الحقيقة وإن كان لم يوضحها – فقال « أراد بالنجمين زحل والمشترى . وقد وجد هذا القرآن فى سنى ظهوره . ولم يملك سبع قرانات ،

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٤ ؛ والبغدادى : الفرق ١٧٣ .

وما ملك سبع سنين . بل قتل بهيت رمته امرأة من سطحها بلبنة على رأسه فدمغته ، وقتل النساء أخس قتيل وأهون فقيد (١) .

ومن الواضح أن البغدادى يشير إلى أن أبا طاهر إنما يرمز إلى نفسه ويعلن أنه الداعى إلى المنتظر أو المنتظر ذاته . وكذلك البيرونى يذهب إلى نفس الأمر فيقول إن القرامطة كانوا يتواعدون ظهور المنتظر فى القرن السابع ، وأنهم اعتقدوا أنه أبو طاهر . وقد قلت إن أباه أبا سعيد كان يشير إليه أيضاً على أنه المنتظر . بل إن أبا طاهر نفسه فيما يرى الحمادى اليمانى «كان فليسوفا ملعونا ملك البحرين والأحساء وادعى فيها أنه المهدى القائم بدين الله ، واستفتح ودخل مكة وقتل الناس فى المسجد من الحجج واقتلع الركن ، وراح به إلى الأحساء (٢) .

وإذا تأملنا شعره – من ناحية النقد الداخلى للنص – لتبين لنا أنه يعلن نفسه المبعوث المنتظر مستنداً على ظواهر فلكية ، ثم على تفسيرات باطنية للكتب المقدسة عن المهدى ، ثم يذكر أنه المنعوت أو المبعوث فى سورة الزمر . والآية الثامنة من السورة تتكلم عن القائم وقد أولها أبو طاهر – فيما يبدو – بأنه هو هذا السجاد القائم «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة به. قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الالباب» ثم الآية «قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين» وقد حول كل هذه الآيات التى خص الله بها الرسول إليه هو .

أما أنه سيملك الأرض فهو يستمدها أيضاً من تفسيره الباطنى للآية «وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين» أما أن مربعة جنة الفردوس وغيره فى سقر فتأويل للآية «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا – قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» .

يبدو أن أبا طاهر مزج كل هذه التأويلات بأقوال المنجمين والمجوس وآمن بها عن يقين ، ولكن هناك شاهداً واضحاً حاسماً فى قصيدته يثبت أنه حنفى . إنه يذكر أنه داعية للمسيح ، وأنه سيعمر حتى يأتى ويشهد له . ونحن قد ذكرنا من قبل هذا الكتاب الحنفى الوارد عن أحمد بن محمد بن الحنفية ،

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .

(٢) اليمانى : كشف . . جـ ١ ص ٢٠ .

والذى انتشر بين قرامطة السواد ثم حمله بدون شك معه أبو سعيد الجنابى والد أبى طاهر ويبدأ الكتاب بأنه «داعية للمسيح عيسى بن مريم» . فهو إذن الفار قليط الآتى من روح القدس والذى بشر به الإنجيل وهذا ما يحسم الأمر فى أن عقائد القرامطة الرسمية كانت كيسانية حنفية .

ونلاحظ أيضا أن أبا طاهر حارب يوسف بن أبى الساج – القائد العباسى الكبير – وكان هذا القائد على عقيدة فاطمية مستترة وقد أسره أبو طاهر – وقتله – مع علمه الكامل بأنه فاطمى ، يدين بالولاء لحاكم القيروان . فأبو طاهر لم يكن يأبه بعبيد الله ولا بأوامره – اللهم إلا إذا حققت له وللقرامطة مأرباً خاصًّا .

وما لبث أن قام أبو طاهر بحركة من أعجب الحركات فى تاريخ القرامطة بل فى تاريخ الإسلام «فقد ظهر فى البحرين فى ظروف غريبة مريبة فى أول شهر رمضان عام ٣١٩ هـ . ابن أبى زكريا الطهامى – كما يدعوه البيرونى[١] . أو زكريا الأصفهانى المجوسى أو الدجال الفارسى كما يقول ابن الأثير[٢] أو «الغلام المعروف بالذكرى من أبناء ملوك الأعاجم من بلاد أصبهان كما يقول المسعودى[٣] وقد دعا إلى ألوهيته . يقول البيرونى «وكان غلاما فاجراً ، فدعا إلى ربوبيته ومن لهم هذا الغلام أن تشق بطون الموتى وتغسل وتحشى خمرا . وقطع يد من أطفأ ناراً بيده ، وقطع لسان من أطفأها بنفخة ،ثم أمرهم بالفجور بالغلمان . . . وأمرهم بعبادة النيران وتعظيمها ولعن من مضى من الأنبياء وأصحابهم » ويذكر القاضى عبد الجبار «أن أبا طاهر رحب بالدجال زكريا الأصفهانى وثار معه على الفاطميين وفضح أسرارهم المذهبية ، وأن الدعاة أمثال أبى القاسم عيسى بن موسى وأبى مسلم بن محمد الموصلى وأبى بكر وأخيه حاتم بن حمدان الرازى الكلاعى وآخرين قد ماتوا أسفاً وحزناً على فضح أبى طاهر للدعوة» بل يذهب عبد الجبار إلى أن «القرامطة أعلنوا أثناء حكم زكريا بأن جميع تعاليمهم السابقة عن المهدى والنسب النبوى ما هى إلا لغو وكشفوا عن أسرار فرقتهم كلها ، ونشروا لأول مرة قصة عبد الله بن ميمون ودنان وغيرهما ، وخططهم فى خداع المسلمين ، وطعنوا فى جميع الأديان . وأحرقوا الكتب الدينية كلها ، ونادوا بابن زكريا إلهاً . واستحلوا المحرمات[٤] . وقد أثار هذا الدعاة كما قلت وقتل زكريا داعية القرامطة الكبير . أبا حفص بن زرقان ، وكان زوج أخت أبى طاهر ، وكان يدعى الشريك وكان أكملهم عقلا وأحسنهم علماً .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ جـ ٨ ص ٢٦٣ .

(٣) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٤) لويس : أصول . . . ص ١٨٦ .

وهذا دليل آخر أكثر حسما على أن أبا طاهر لم يهتم بالإسماعيلية اهتماماً حقيقيًّا . وأن كل ما اهتم به هو تدعيم سلطانه هو وسلطان القرامطة ، فلما هزم فى العراق ورجع إلى هجر ، أصابه بعض اليأس ، فضعف أمام المجوس الفرس من شيعته ، ورحب بأبى زكريا المجوسى ، وأطلق له الأمر ، ومكث زكريا هذا ثمانين يوماً بحكم القرامطة « إلى أن سلط عليه من كان تولى إظهاره فذبحه » [١] أى قام أبو طاهر نفسه بقتله ، ورجع القرامطة إلى عقيدتهم القديمة . ويذكر المسعودى « أن رأى زكريا أظهر فى العسكر من المذاهب الشنيعة والسير القبيحة التى لم تعهد ، ولا عرفت فى عسكر هؤلاء القوم منذ استولى أبو سعيد على هذه البلاد وولده » وبعد قتله زالت ورجعوا عنها ، واعتذروا أشد الاعتذار [٢] .

وفى عام ٣٢١ هـ . قام أبو طاهر بحملته الأخيرة ، على جنوبى غرب فارس وقد فشلت حملته أيضا . ومات أبو طاهر الجنابى عام ٣٣٣ هـ . أى بعد عشرة أعوام من وفاة عبيد الله المهدى (المتوفى عام ٣٢٢) وعاصر حكم القائم (المتوفى عام ٣٣٤ هـ) ، ولم تكن بين الاثنين علاقات . ولم يستطع القائم أن يجعل أبا طاهر يعيد الحجر الأسود إلى مكانه .

تولى زعامة القرامطة بعد أبى طاهر أخوه أحمد ، على أن يكون ولى عهده سابور بن طاهر . وقد سار أحمد بن أبى سعيد على سياسة أبيه وأخيه . العمل لخير القرامطة وحدهم ، فما غزا الشام عام ٣٥٨ ، وعرض عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج الأخشيد والى الشام الصلح ، قبل فورا بدون مراعاة لصالح الفاطميين ، وهم على وشك الانقضاض على مصر . ويبدو أن سابور بن أبى طاهر كان على ولاء للفاطميين ، فلما توفى عمه عام ٣٥٨ ، وحاول سابور تولى رئاسة القرامطة ، لم يقبل معظمهم . وقاموا بثورة عليه ، وقتلوه ونفوا أنصاره إلى جزيرة أوال . وكان يقود الثورة الحسن بن أحمد الأعظم .

وسرعان ما انقض الحسن الأعظم على دمشق وقتل جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الكتامى (٣٦٠ هـ) وقام الحسن الأعصم على منبر جامع دمشق ولعن الخليفة الفاطمى وأعلن أن « هؤلاء من ولد القداح ، كذابون ممخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم . ومن عندنا خرج جدهم القداح [٣] » .

وهكذا نرى الحسن الأعظم يسير على سياسة أبيه وعمه وجده لا يؤمن بالفاطميين ، بل يحاربهم أشد حرب ويعلن أنهم كذابون ممخرقون ، وأن عبد الله بن ميمون إنما خرج من عندهم ، أى أنه لم يكن منتسباً للبيت العلوى . بل إن الحسن الأعصم يحاول بكل الوسائل التقرب من الخليفة العباسى

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ٢١٤ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٤ .

المطيع ، ويحاول العودة كما فعل عمه سعيد إلى حظيرة السنة . وحارب الحسن الأعصم الفاطميين . وكاد أن يفتح مصر ، لولا أن قام العزيز ، الخليفة الفاطمى على رأس الجيش لمحاربته وانتصر على الحسن الأعصم فى عام ٣٦٦ هـ . وقد حالت وفاة الحسن الأعصم عام ٣٦٧ هـ من معاودة القرامطة الكرة على مصر .

أما أن المعز قد أرسل إلى الحسن الأعصم خطابا طويلا ملأه بالاصطلاحات الإسماعيلية ، والتعبيرات الغنوصية ، وذكره فيه بسنة آبائه وأسلافه ، وأنهم كانوا عبيداً للفاطميين وخولا لهم ، فإنه من نوع المراء الذى جبل عليه المعز وأصحاب الدعوات السرية جميعاً ، علاوة على أن أبا سعيد على الأقل لم يكن أبداً فاطمياً أو مخلصاً للفاطمية ، وكذلك أبو طاهر . إنما استخدم المعز هذا الأسلوب للتأثير فى بعض أتباع الرجل من الإسماعيلية . وقد رد الحسن الأعصم على خطاب المعز حينئذ « من الحسن بن أحمد الأعصم – بسم الله الرحمن الرحيم . وصل إلينا كتابك الذى كثر تفصيله ، وقل تحصيله . ونحن سائرون على أثره والسلام . وحسبنا الله ونعم الوكيل [1] .

فالقرامطة ، فى مجموعهم لم يكونوا إسماعيلية ، وإن كان البعض منهم قد بقى مؤمناً بها بعد اعتناق حمدان قرمط لمبادئها مدة من الزمن – بل إننا نجد داعيا من أقرب الناس إلى عبدان – وهو عيسى بن موسى ابن أخته ، وحريث بن مسعود تلميذه يبقيان على عقيدتها الإسماعيلية المقيدة ، وهى الإيمان بمحمد بن إسماعيل فقط ويذهب عيسى بن موسى إلى بغداد ، ويعيش فيها . ويذكر النويرى أن عيسى ابن موسى نظم الدعوة فى بغداد ، وأخذ يؤلف الكتب وينسبها إلى عبدان ، وقد جمع فى هذه الكتب ولفق المذاهب حتى توهم الناس أن عبدان أعلم أهل الأرض .

وقد حاول برنارد لويس جاهداً أن يثبت التشابه بين القرامطة والإسماعيلية مستنداً على أخبار متأخرة فى رسالتين درزيتين نقلها دى ساسى : أولاهما : السيرة المستقيمة بشأن القرامطة لحمزة الأصفهانى .

ويبدو أن هذه الرسالة قد كتبت سنة ٤٠٩ هـ . ويتكلم حمزة فى هذه الرسالة عن تأسيس الدعوة فى هجر على يد رجل اسمه شاتنيل بن دانيال « ويذهب أهل الإحساء عادة إلى صرنا – هجر – ليبيعوا ويشتروا . فجاء إلى صرنا رجل من علماء الإحساء اسمه صرصر ، فأدخله أحد الدعاة مذهبه ، وأخذ عليه العهود والمواثيق ، وجاء به إلى آدم الذى هو شاتنيل ، فعينه آدم داعية للاحساء وما جاورها ، فانطلق صرصر إلى الأحساء وما يتبعها ، وأخذ اليمين من قوم كثيرين ، وأوصاهم أن يخلصوا لعقيدة وحدانية مولانا وعبادته ، ويعترفوا بشاتنيل وإمامته ، ويكفروا بإبليس وأتباعه ، وقال لهم : إذا دخلتم

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ – ١٤٤

هجر ، فقرمطوا أنوفكم على أهلها ، لأن فيها رجلا اسمه الحارث بن طرماح الأصفهانى له أتباع كثيرون ثائرون جميعهم على مولانا العليم ، ولا يعتقدون بأفضلية الإمام ولا تحدثوا أحداً من أهلها عن الدعوة إلا الذين معكم فى حضرة الحكيم شانتيل . فاستجابوا بصرصر وأطاعوا ما أمرهم به ، وتظاهروا كما قال لهم بالقرامطة ، فسموا بالقرامطة واتسموا بها إلى الآن .

وهذه رواية جديدة عن ظهور اسم القرامطة ، وتعنى أنه ظهر فى أوائل القرن الخامس ثم انتشر هذا الاسم فى أهالى خراسان وفارس ، وصاروا إذا وصفوا رجلا بالتوحيد . قالوا : هذا قرمطى . وقد كان أبو طاهر وسعيد وآخرون كثيرون دعاة مخلصين لمولانا ، خدموه وعرفوا وحدانيته وإجلاله وعظموه ، واعتقدوا أنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه . وقد انضم عليهم المولى بلقب سيد ، وعملوا ما لم يعمله غيرهم من الدعاة فى نشر عقيدة التوحيد ، وقتلوا من المشركين أكثر مما فعل غيرهم . ولكن مولانا لم ير إظهار نفسه بينهم ، لعلمه أن ذلك يوقع الخلاف بينهم حتما ، وتضيع عقيدة التوحيد ، فينتشر الضلال ، ويتبع أطفال بنى عباس أهواءهم ، فيسقطون فى الخطيئة والغواية .

«ولكن يوم الظهور قريب ، وساعة إشارة السيف والثورة وتقتيل الكافرين وإبادة قواتهم آتية تكاد تظهر . ولا شك فى أن أهل الإحساء وهجر وفارس سيعودون إلى معرفة مولانا وعبادته – كما كانوا من قبل – سيخرون سجداً لمولانا وعظمته ، وسيؤمنون بأنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه وسيصبحون حماة عقيدة التوحيد ، كما كان آباؤهم من قبل وسأبعث فيهم دعاة التوحيد ، وأجمع بقايا الأصدقاء والعبيد ، وسوف أنتصر بسيف مولانا على كل ثائر» .

أما الرسالة الثانية التى استند عليها لويس برنارد فهى رسالة للمقتنى أبى الحسن على بن أحمد السموقى المكنى بالمقتنى بهاء الدين . أحد أصحاب حمزة وقد دعاه حمزة نفسه جناحه الأيسر . واسم الرسالة رسالة السفر إلى السادة فى الدعوة لطاعة ولى الحق الإمام القائم المنتظر ، وفيها يخاطب الداعى المقتنى شيوخ البحرين – وهم ما يسميهم السادة ، ويطلب منهم العودة إلى حظيرة التوحيد – أى إلى عبادة الحاكم بأمر الله الإسماعيلى ، ويلومهم على ردتهم .

وينتهى لويس إلى القول بأن «شهادة هاتين الرسالتين الدرزيتين تعززهما بينة المصادر السنية ، لا تترك شكًّا فى امتراح القرامطة والفاطميين برهة من الزمن على الأقل ، وليس من الصعب أن نعترف بما جاء فى رسالة حمزة بصدد نشوء القرامطة من البحرين ، وإن كان بأسلوب خرافى» (١) .

ومن العجب أن يستند برنارد لويس على كتب الدروز فى توضيح العلاقات التاريخية الصحيحة بين القرامطة والإسماعيلية . إن الكتب الدرزية لا يمكن أبداً أن تكون أساسا علميًّا للحقائق التاريخية ،

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٦ – ١٨٠ .

فقد كتبت – وقد لاحظ هو نفسه ذلك – بأسلوب أسطورى . ثم ينبغى أن نلاحظ أن حمزة هو داعى الحاكم بأمر الله ، ومتكلم عصره . ونرى بوضوح من مضمون رسالته أن يدعو عبادة مولانا فهو إذن يتكلم عن محاولة جديدة لإدخال الحاكمية أو ما عرف فيما بعد باسم مذهب الدروز إلى البحرين . لم تكن الإسماعيلية تؤمن بعبادة مولانا ووحدانيته ، ولم تعرف هذه المصطلحات إلا فى عهد الحاكم وعلى يد داعية حمزة ثم الدروز فيما بعد .

ونحن نعلم أن القرامطة فى البحرين عادوا إلى التشيع العلوى على طريقة كيسانية بعد وفاة الحسن الأعصم – فيما يقول ابن خلدون فى العبر [1] . فحاول الحاكم أن ينشر بينهم الدعوة إلى ألوهيته ، واستخدم داعى دعاته حمزة ، وأرسل المقنى أحد الأركان ، ويبدو أنه بدأ دعوته هناك ، ولم ينجح ، فكتبها حمزة فى صورة رمزية .

ومن الدلائل القاطعة على أن شيوخ البحرين لم يتابعوا المذهب الفاطمى رسالة تحتفظ بها المكتبة الأهلية بالقاهرة فى مجموعة مخطوطات حمزة ، هذه الرسالة – هى صورة كتاب أرسله زعيم القرامطة إلى الحاكم بأمر الله يتهدده ويتوعده ويطلب إليه الخضوع للقرامطة . فالعلاقة إذن بين القرامطة والفاطمية لم تكن أبداً علاقة مودة فى جوهرها ، واستمر النزاع العقائدى بين الاثنين أمداً طويلا . وقد أحس لويس بأن القول بالتشابه بين الاثنين لا يمكن قبوله على إطلاقه ولكنه – وهو يحاول تدعيم فكرة التشابه رأى أن القرامطة – كانوا حنفية ، ثم صبأوا جميعا إلى الإسماعيلية وهذا وضع خاطئ للمسألة : إن القرامطة بقوا دائماً حنفية كيسانية إلا فى آنات تحولوا فيها ظاهريًا للمذهب الإسماعيلى ، أو استخدموه ثم عادوا إلى الحنفية أو الكيسانية .

ولقد وصف ناصر خسرو فى كتاب سفر نامه مجتمعهم ، لا صيام ولا صلاة ولكن مع إيمان بنبوة محمد ﷺ . وتحريم للخمر مهما كان نوعها . وحياة نقابية كاملة ، ثم افترقوا دويلات ، حتى قضى عليهم المذهب السنى عام ٤٧٠ وانتهو من الأرض انتهاء كاملا .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

الفصل الخامس

أحمد الكيال

فيلسوف الإسماعيلية الكبير

تكلمنا فى الفصل السابق عن مجهودات الدعاة الإسماعيليين – وبخاصة الحسين الأهوازى – بين القرامطة . ورأينا أنه انبثق عن هذه الدعوة التحام القرامطة حيناً بالإسماعيلية ، ثم افتراقها عنها فى أغلب الأحايين . وليس بين أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نعرض لآراء مفكرى القرامطة بالتفصيل وبخاصة عبدان ، على كثرة ما ذكر اسمه فى الأحداث السياسية بين القرامطة وبين الإسماعيلية ونحن الآن هنا فى هذا الفصل نعرض لفيلسوف من فلاسفة الإسماعيلية ، لم يترك عنه إلا شذور غامضة ، وأخبار قليلة نادرة : وهو أحمد الكيال .

لم يذكر مؤرخو الفرق شيئاً على الإطلاق عن تاريخ مولده أو وفاته . غير أنه من الممكن أن نصل على وجه التقريب إلى عصره خلال النقد الخارجى والداخلى لبعض النصوص التى بين أيدينا . فنصل خلال النقد الخارجى إلى أنه كان معاصراً للفيلسوف الملحد المشهور محمد بن أبى بكر الرازى (المتوفى فى عام ٣١٣ هـ) . إن ابن النديم يذكر فى قائمة كتب الرازى «كتاب النقض على الكيال فى الإمامة» (١) ويذكر هذا النص نفسه ابن أبى أصيبعة (٢) . فالرجل إذن شغل المجامع الفكرية الإسلامية فى عصره . ومن المرجح كثيراً أن يكون قد عاصر الرازى ، بحيث عنى هذا الفيلسوف الكبير الملحد بكتاب الكيال ، فكتب فى نقضه وفى الرد عليه . وأما النقد الباطنى – لفقرات الكيال التى حفظها لنا الشهرستانى من كتاب هذا الأول – فيرجح أن صاحبها عاصر إخوان الصفا . ذلك أنه يتضح فى هذه الفقرات مشابهة كبرى بينها وبين رسائل إخوان الصفا .

أما الشهرستانى (٣) – وهو أكثر المفكرين كتابة عنه – فقد أدرج فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة ، وأوردها بعد الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى . وذكره تحت اسم أحمد بن الكيال أحياناً . وأحمد الكيال أحياناً أخرى . ويقول عنه «وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٣٣ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون .. ج ١ ص ٢١٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٤ .

الصادق – وأظنه من الأئمة المستورين» ويبدو أن عبارة «من الأئمة المستورين» إنما تتعلق بواحد من أهل البيت لا بالكيال – فالعبارة فى ظاهرها إذن تعنى أن أحمد الكيال كان من دعاة واحد من أهل البيت من الأئمة المستورين بعد الإمام الصادق . ولكن من الممكن تخريج العبارة بأن أحمد الكيال نفسه كان من المستورين . وقد يقوى هذا التخريج إلى حد ما ما ادعاه الكيال بعد ذلك أنه الإمام ثم أنه القائم . والنص يحدثنا أنه عاش بعد جعفر الصادق وفى نطاق الأئمة المستورين ، أى ينبغى أن يوضع فى فلك الأئمة الإسماعيلية – فى دور الستر – منذ أن أعلن الإمام محمد بن إسماعيل استتاره .

وهذا ينقلنا إلى احتمال آخر : هل أحمد الكيال هو الإمام الإسماعيلى المستور أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل ، وقد عرف هذا الإمام بتضلعه فى الفلسفة اليونانية ، حتى إن بعض المؤرخين ينسبون إليه رسائل إخوان الصفا . وحينئذ يقرأ نص الشهرستانى السالف الذكر على الوجه الثانى الذى ذكرته : وهو أن أحمد الكيال كان هو نفسه من الأئمة المستورين . ولكن ينقض هذا الرأى ما يذكره الشهرستانى نفسه «ولعله سمع كلمات علمية ، فخالطها برأية القائل ، وفكره العاطل ، وأبدع مقالة فى كل باب علمى على قاعدة غير مسموعة ولا معقولة . وربما عاند الحس فى بعض المواضع ، ولما وقفوا على بدعته ، تبرأوا منه ولعنوه ، وأمروا شيعتهم بمنابذته وترك مخالطته ، ولما عرف الكيال ذلك ، صرف الدعوة إلى نفسه ، وادعى الإمامية أولا ، ثم أدعى أنه القائم ثانيا»[1] فإذا كان المستورون قد تبرأوا منه فهو ليس إذن الإمام أحمد .

وهنا يقابلنا نص قد يكشف القناع عن حقيقة أحمد الكيال «يقول الداعى إدريس : كان حجة ثالث الخلفاء – أى الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل – أحمد الملقب بالحكيم – من ولد مولانا الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون – قدس الله روحه – وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرها ، وأرفع الحجج وأسماها ، وأبطنها وأعلاها»[2]

ولم يتنبه الباحثون فى تاريخ الإسماعيلية إلى حقيقة هذا الحجة «أحمد الحكيم» وظنوا أنه أحمد بن عبد الله بن ميمون . ولو كان هذا صحيحاً ، لذكر الداعى إدريس أن عبد الله بن ميمون سلم مرتبة الحجة قبل وفاته إلى ابنه أحمد . ولكن النص لا يذكر هذا علاوة على أنه يقرر أن أحمد الحكيم هذا هو من نسل الحسين بن على . ونحن نتساءل : من هو أحمد الحكيم هذا ؟ إن الاحتمال الأكثر صوابا أنه أحمد الكيال ، وأنه كان حجة للإمام الحسين لمدة من الزمن ، ثم اختلف معه ، وانفصل عنه ، وكون فرقته هو ، وبخاصة أنه كان يدعى الانتساب للعلويين أو أنه كان واحدا منهم . ولما انفصل عن الإمام الحسين ، عاد هذا الأخير إلى التماس حججه من أولاد القداح ، فعين كحجة له – محمدا أبا

(١) الشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٣٠٤ .

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى .. ٦٤ .

الشلعلع ويلاحظ أن كتب الإسماعيلية قد أهملت ذكر أحمد الحكيم إهمالا تاما . والسر فى هذا اختلافه مع الإمام وإعلان نفسه إماماً وقائماً . وبهذا تكون وجهه النظر الثانية وجهة أقرب إلى الصحة .

وهنا تقابلنا مشكلة أخرى : وهى اسم الكيال نفسه ، وقد أطلق على أتباع هذا الرجل أيضاً فقيل لهم الكيالية ، ماذا يعنى هذا الاسم ؟ هل هو اسم صنعة كالقداح والعلاف والإسكاف . . إلخ . أم أنه كيالّ الحكمة أى الذى يكيل الحكمة للناس ؟ وقد رأينا تفسيراً مثل هذا لاسم القداح نفسه ، فقيل إنه سمى بهذا ، لأن الحكمة تنقدح فيه ومنه .

غير أننى أقترح قراءة أخرى للاسم : وهى الكبال بدلا من الكيال ، وتكون الفرقة اسمها الكبالية لا الكيالية . والكبالية أو القبالية – هى فرقة يهودية صوفية نسبة إلى الكبالا .

والكبالا : فرقة غنوصية يهودية ، وقد انتشرت فى العالم الإسلامى ، ويعرفها فيدا بأنها تشوق إلى معرفة العالم ، معرفة أصله ، معرفة الحكومة الكونية التى تحكمه ، ثم غاية هذا العالم . ولكن هذه المعرفة لا تكون عن طريق البحث المنهجى للواقع المحسوس ، ولا يستند على جدل تصورى . إنها تتحقق متجاوزة المعقول ، متخذة طريق التأمل والإشراق . وقد اتخذت الكبالا طرقا متعددة لتدشين المريدين .

وفى أساس الكبالا ، وإذا نظرنا إليها من داخل ، نجد الغرابة العجيبة فى تجاور فكرة الذوق وفكرة السنة . إنها تنعكس إذا حللنا اسم الكبالا لغوياً . إن معنى الكبالا : السنة [1] .

وقد أصبحت الكبالا تحتوى – بجانب مذهبها الصوفى – الطلاسم والسحر والنيرنجات .

والاعتقاد فى قيمة الحروف والأرقام ، واستخدم القيم العددية للحروف الأبجدية . وقد انتشر القباليون فى العالم الإسلامى ، وعرفت الكبالا معرفة تامة . ويبدو أن ميمونا القداح نفسه كان على معرفة تامة بها . وقد أوردنا من قبل أن الحمادى اليمانى يتهمه بأنه كان يهودياً صائغا يخدم أولاد إسماعيل ابن جعفر ، وأنه كان يعيش فى سلمية . ويوجد لا شك عنصر يهودى فى هذه التأويلات الكثيرة التى وضعها الإسماعيليون للقرآن ، وهناك اتجاه كبالى واضح إلى أقصى حد فى اعتقادهم فى الحروف والأرقام فى استخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وأكبر مثال لكل هذا أو أول مثال : هو أحمد الكيال ، ثم إخوان الصفا ، ثم كتب الدعاة الإسماعيليين جميعا . ولكن إن صحت هذه القراءة ، هل يمكن أن نفترض أن أحمد الكيال أو الكبال كان يهوديا ، ادعى الانتساب إلى البيت الحسينى ؟ من المحتمل هذا ، ومن المحتمل أنه لم يكن وأنه كان يدعى فقط فى درجات الدعوة العليا بالكبال ، لبراعته فى علم الطلسمات ومعرفته لخفايا ولمزايا القيم العددية للحروف ، كما سنراه واضحاً فى مقالته .

---

(١) Vajda: Introduction a La Pensee Juine Du Mpyen age, P.P. 197-198.

وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن يهودياً ، وإنما لقب بالكيال لمعرفته بعلم الكيالا . ولم يذكر الشهرستانى عنه أنه كان يهوديا . وكذلك فخر الدين الرازى بل كان ما ذكره هذا الأخير هو « أحمد الكيال الملحد ، وكان ضالا مضلا . وقد صنف كتابا فى الضلالة والترهات (١) » .

أما ابن طاهر المقدسى فقد ذكر فى كتابه الهام « البدء والتاريخ » فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة(٢) وسكت عنها بعد ذلك فلم يذكر شيئاً إطلاقا لا عن الكيال ولا عن عقائد الكيالية .

وهنا ننتقل إلى كتاباته . كتب أحمد الكيال كتاباً فى « الإمامة » وهو الكتاب الذى نقضه عليه محمد بن أبى بكر الرازى . كما ذكر فخر الدين الرازى هذا الكتاب أيضاً . أما الشهرستانى فيذكر أنه « أبدع مقالة فى كل باب علمى » ثم يذكر أيضاً « وبقيت من مقالته فى العالم تصانيف عربية وعجمية » ويبدو من هذا أنه كتب بالعربية والفارسية ويبدو أن الكثيرين قد آمنوا بدعوته بحيث يذكر الشهرستانى « وإنما قبله من انتمى إليه أولا على بدعته ذلك ، أنه الإمام ثم القائم (٣) » .

فلسفة أحمد الكيال :

يبدأ أحمد الكيال فلسفته بفكرة العلم الغنوصى الذى يحققه القائم فى نفسه . وقد سبق أن قلنا إن هذه الفكرة ظهرت أول الأمر منسوبة إلى محمد بن الحنفية ، أو أن الهاشمية نسبوها إلى محمد بن الحنفية . وقد قرروا أن محمدا أفضى بأسرار العلوم إلى ابنه هاشم ، وأطلعه على « تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن . وأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة فى ذلك العالم ، وأن كل ماينشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وترى الهاشمية – كما قلنا قبلا إن هذا العلم كان لعلى بن أبى طالب ، وأنه خص به ابنه محمداً ، ثم أفضى محمد به إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام . أخذ أحمد الكيال فكرة الهاشمية أو الحنفية القديمة أو بمعنى أدق الفكرة الغنوصية المنتشرة فى أوساط الكوفة عن الإمام ورددها بقوله « إن كل من قدر الآفاق على الأنفس وأمكنه أن يبين مناهج العالمين أعنى – عالم الآفاق – وعالم الأنفس وهو العالم السفلى ، كان هو الإمام وهذه أول مرحلة من مراحل العلم الغنوصى السرى – يعقبها مرحلة أكبر وأدق وهى مرحلة القائم « إن من قرر الكل فى ذاته وأمكنه أن يبين كل كلى فى شخصه المعين الجزئى ، كان هو القائم » فالإمام إذن أدنى من القائم ، الأول

---

(١) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦١ .

(٢) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٠٤ .

بين مناهج العالمين ، أما الثانى فهو يحقق فى ذاته الجزئية كمالات العالم العلوى . وسيعلن أحمد الكيال – كما سنرى فيما بعد – أنه أعظم مثال لهذا التقرير أو هذا التحقق ، وأنه استطاع أن يحقق فى نفسه تحققاً كاملا كل ما فى هذا العالم العلوى من كمالات ، بل إنه حقق فى هذا المضمار ما لم يحققه أحد قبله من القائمين (١) .

ويقسم الكيال الكون إلى عوالم ثلاثة : العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الإنسانى .

١ – العالم الأعلى :

وفى العالم الأعلى عنده خمسة أماكن . الأول : مكان الأماكن : فارغ لا يسكنه موجود ولا يدبره روحانى ، وهو محيط بالكل ، أى أنه خلاء ممتد يحيط بالكون فى عوالمه المختلفة ، وكنهه غير معروف لنا ، وهو ما يسميه أهل الشرع بالعرش . والثانى : مكان النفس الإنسانية الأعلى وهو يلى مكان الأماكن ، ثم بالترتيب ، والثالث : مكان النفس الحيوانية . ومن الواضح أن هنا أفلاطونية محدثة مختلطة بعقائد إسلامية . ولكنه ما يلبث أن يطويه غموض الأفلاطونية المحدثة طيًّا كاملا . فيقدم لنا معراجاً للنفس ، أفلاطونيًّا محدثاً بحتاً .

تشوقت النفس الإنسانية إلى الصعود إلى عالم النفس الأعلى ، فصعدت وخرقت المكانين : مكان الحيوانية ومكان الناطقية ، وحين قاربت الوصول إلى عالم النفس الأعلى ، كان الكلل والتعب والملل قد حل بها ، ذلك أنها لم تكن قد اكتملت بالعلم وتحققت بالمعرفة ، فتعفنت واستحالت أجزاؤها ، فهبطت إلى العالم الأسفل ومضت عليها أكوار وأدوار ، وهى فى حالها تلك من عفونة واستحالة – وأخيراً ساحت عليها النفس الأعلى وأفاضت عليها النفس نوراً من أنوارها ، جزءاً من هذا النور .

وحدثت التراكيب فى هذا العالم ، حدثت السموات والأرض والمركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، ووقعت النفس الإنسانية فى بلايا هذا التركيب تارة سروراً وتارة غمًّا ، وتارة فرحاً ، وتارة ترحاً ، وطوراً سلامة وعافية ، وطوراً بلية ، ومحنة ، أى مرت عليها أدوار وأكوار مرة أخرى ، وهى لم تتمكن من التوصل إلى جزء هذا النور بأكمله ، ووصلت إليها تلك التراكيب التى فيها الخير والشر ، وهى فى كل مرة تحاول التخلص من عالم الشرور والباطل إلى عالم السعادة والحق ، ولكن دون جدوى .

ثم ظهر القائم وكان عليه أن يردها إلى حال الكمال ويحل التراكيب الباطلة من غير الباطلة ، وأن يظهر طبيعة المضادات ، ويبين أن الضد لا ينبغى أن يلحق بالضد وكان وجود القائم لإظهار الروحانى

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٤ .

على الجسمانى ، وتغلب أحدهما على الآخر (١) .

القائم إذن هو الغنوص بأجلى مظاهره وأوضح معانيه ، وقد ظهر هذا الغنوص فى قائمين من قبل حتى انتهى إلى أحمد الكيال . أما العلة فى أنه انتهى إليه فهو سبب حروفى كبالى .

لجأ الكيال إلى الفكرة الحرفية الكبالية لكى يدلل دلالة قاطعة على أنه ذلك الغنوص أو ذلك القائم الذى ظهر ليهدى الإنسان إلى الحقيقة . أو بمعنى فلسفى لكى يعيد النفس الإنسانية إلى عالم النفس الأعلى . وتفصيل ذلك أن أحمد عنده يطابق العوالم الأربعة : الألف من اسمه يقابل النفس الأعلى . والحاء تقابل النفس الناطقة ، والميم تقابل النفس الحيوانية . والدال تقابل النفس الإنسانية . والعوالم الأربعة هى المبادئ والبسائط ، ويتوافق أحمد الكيال مع مذهبه حين يقول إن مكان الأماكن لا وجود فيه ألبتة . إذ أنه خلاء مطلق ثم أثبت فى مقابلة العوالم العلوية العالم الأدنى (٢) .

٢ – العالم الأدنى :

يضع أحمد الكيال نظاماً يتقابل فيه هذا العالم بالعالم الآخر . ولكل قسم من أقسام هذا النظام صفات تشابه تمام المشابهة صفات ما يقابلها من العالم الأعلى تشابهها مشابهة عرضية . ولكنها فى الجواهر تختلف عنها ، وأول هذه الأقسام السماء ، والسماء خالية تقابل مكان الأماكن ثم تليها النار . فالهواء فالأرض ، فالماء وهذه الأربعة أجزاء فى مقابلة العوالم الأربعة ، الإنسان فى مقابلة النار ، والطائر فى مقابلة الهواء ، والحيوان فى مقابلة الأرض ، والحوت فى مقابلة الماء ، ويستخلص من هذا أن مركز الماء أسفل المراكز ، والحوت أخس المركبات .

العالم الإنسانى :

ثم قابل الكيال العالم الإنسانى مع الآفاق التى ذكرها من العالمين الروحانى والجسمانى . فحواس الإنسان خمس ، كل واحدة منها فى مقابل أفق من آفاق العوالم السابقة ، فالسمع فى مقابلة مكان الأماكن من العالم الروحانى والسماء فى العالم الجسمانى ، وذلك لأن السمع خلاء فارغ كمكان الأماكن والسماء والبصر ، فى مقابلة النفس الأعلى من العالم الروحانى وفى مقابلة النار من العالم الجسمانى وفى البصر إنسان العين ، وهذا الإنسان مختص بالنار . والشم فى مقابلة الناطق من الروحانى والهواء من الجسمانى ، لأن الشم من الهواء يتراوح ويتنسم ، والذوق فى مقابلة الحيوان من الروحانى ، والأرض من

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل نفس الجزء والصحيفة .

الجسمانى ، « والحيوان مختص بالأرض . والطعم بالحيوان » واللمس فى مقابلة الإنسان من الروحانى والماء من الجسمانى . والحوت مختص بالماء واللمس بالحوت . وربما عبر عن اللمس الكناية » .

ثم حاول مطابقة اسمه على هذه العوالم فاعتبر اسمه : أحمد : ألف وحاء وميم دالا فى مقابلة العوالم الثلاثة السابقة متخذاً كما قلت الكبالا منهاجاً له .

أما عن الروحانى ، فقد تكلمنا عن مقابلات حروف اسمه أحمد لآفاق هذا العالم .

أما فى مقابلة العالم السفلى الجسمانى . فالألف يدل على الإنسان . والحاء على الحيوان ، والميم على الطائر والدال على الحوت . فالألف يشبه الإنسان من حيث استقامة القامة فى كل منهما ، والحاء كالحيوان لأنه معوج محدودب منكوس ، واسم الحيوان يبدأ بالحاء ، والميم يشبه رأس الطائر « والدال يشبه ذنب الحوت .

ويرى الكيال أن الله خلق الإنسان على شكل اسم أحمد ، فالقامة مثل الألف ، واليدان مثل الحاء والبطن مثل الميم ، والرجلان مثل الدال . وهى فكرة كبالية واضحة .

ويرى البيرونى أن الكبالا اليهودية وشعبذاتها انتشرت بين المسيحيين والمسلمين أيضاً . فحاول المسيحيون الغنوصيون أن يحققوا فكرة الصليب من أشكال النجوم وأوضاعها ، فذكروا أن كواكب الدلفين اجتمعت على شكل صليب إبان صلب المسيح .

ويعجب البيرونى من هذا . ويقول « والعجب منهم حيث لا يتدبرون ، حتى يعرفوا أن فى العالم أمماً من شأنهم رصد الكواكب وامتحان أسبابها منذ أحقاب ودهور ، يتوارثون فيما بينهم خلفاً عن سلف : أن كواكب الدلفين من الثوابت التى وجدها أسلافهم المعتنون بأمرهم على هذه الهيئة » ويرى البيرونى أن الكبالا أيضاً انتشرت عند المسيحيين وكثيراً ما تستعمل هذه الفرق الكبالية من النصارى لصنوف التمويهات والهوس فى تعظيم الصليب كاستدلالهم بما أمر الله به بنى إسرائيل من عمل حية من نحاس ، وتعليقها من خشبة منصوبة لدفع أذى الحيات لما كثرت عندهم فى التيه ، فيقولون إنه بشارة على الصليب وذكر له . كما ادعوا أن آية موسى كانت عصاه – والعصا خط مستطيل ، فلما جاء المسيح طرح عصاه عليها فحدث منها صليب . وقد كملت شريعة موسى بمجىء المسيح ، والدليل على ذلك ، أنه لو ألقى عصاً ثالثة على الصليب من أى جهة كان ، صار منه حرف لا – أى لا زيادة ولا نقصان .

ثم يرى البيرونى – ولعله يشير إلى أحمد الكيال – أن هذا التهوس من النصارى – مثل ما يتهوس به الفرقة من المسلمين المشتغلة بالتأويلات من تشبيه اسم محمد (وأحمد بالتالى) بصورة الإنسان وقولهم : إن الميم نظير رأسه والحاء نظير بدنه والميم الثانى نظير بطنه ، والدال نظير رجليه . ويعلق البيرونى على هذا بقوله : وأظن هؤلاء جاهلين بالتصاوير فى تسويتهم بين مقدار الرأس والبطن وكمية الأعضاء الناتئة

من حملة البدن ، ونسيانهم ما به قوام النسل ، ولعلهم قصدوا الإناث دون الذكران ثم يعلق على هذه التفسيرات كلها بأنها أشبه بالمزاح والسخرية [١] .

ثم يضع الكيال بعد ذلك الفكرة المشهورة التي ترددت فى كتب الإسماعيلية وهى أن القائم خير من النبى ، وأن الأنبياء قادة أهل التقليد ، وأهل التقليد عميان ، والقائم قائد أهل البصيرة ، وأهل البصيرة أولو الألباب والعقول وإنما يحصلون البصائر بمقابلة الآفاق والأنفس . ثم يدخل فى الفروع فيقابل بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية وبين موجودات عالمى الآفاق والأنفس . ويقول الشهرستانى «إنه ادعى أنه متفرد بها ، وكيف يصح له ذلك وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذى قرره الكيال» ويذكر الشهرستانى أنه أول الميزان بالعالمين ، والصراط بنفسه والجنة بالوصول إلى علم القائم ، والنار بما يضاد هذا الوصول» [٢] .

وبعد : فهذه صورة من فلسفة أحمد الكيال مزيج من الأفلاطونية المحدثة والقبالة اليهودية . وتفسير حروفى لاسمه . ومن العجب أن يعتنق عقائده مجموعة من الناس ، ولولا هذا ما عنى مؤرخ العقائد الكبير الشهرستانى من إيرادها وهو يخاطب القارئ ، فيقول «والمقالة – كما سمعتها – من أخس المقالات وأوهى المقابلات ، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعها . فكيف يرضى أن يعتقدها» ولكن اعتنقها مجموعة من البشر . وعاشت زمناً طويلا ، ومازال الإسماعيلية يؤمنون بنفس العقائد ، أو بما يشبهها .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢٩٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٥–٣٠٧ .

الفصل السادس

النظريات الإسماعيلية فى الإمامة

(أ) نظرية التبنى الروحى :

كان من أهم نظريات الإسماعيلية «نظرية التبنى الروحى ونظرية الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة» وقد وجه أنظارنا إلى أهميتها فى تاريخ الإسماعيلية الفلسفى والسياسى الأستاذان ماسينيون وبرناردلويس ، وسنرى كيف استغلا هاتين النظريتين فى إلقاء حل جديد لمشكلة الفاطميين الكبرى وهى نسبهم ، وقد تغالى لويس وماسينيون على الأقل فى توضيح هاتين النظريتين وتأكيد أهميتهما فى التراث الإسماعيلى .

أما نظرية التبنى الروحى أو الأبوة الروحانية أو النكاح الروحى . فيعبر عنها لويس بما يأتى : إن الحركة الباطنية ، بما لها من ميول غنوصية قوية وبتمويلها الشديد على النواحى الباطنية للأشياء دون المادية للتظاهرية منها بلغت بسهولة وبشكل طبيعى جدا اعتبرت فيه العلاقة المادية بين الأب وابنه . . وهى التى تتصل بالبدن التافه الزائل وحده – أقل أهمية وحقيقة من العلاقة الروحانية بين المعلم والتلميذ ، المنبعثة من النفس الخالدة . وينتج عن هذه العقيدة أن التلميذ أحرى بأن يكون الابن والوارث الحقيقى من النسل الطبيعى للإنسان . حتى لقد ارتأى بعضهم أن كلمتى أب وابن فى الأعلام الإسماعيلية إنما استعملتا بهذا المعنى أحيانا (١) .

وقد كتب ماسينيون مقاله الهام عن «سلمان» – وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال من قبل – يحاول فيه تدعيم فكرة التبنى الروحى ممثلا فى سلمان عن طريق الحديث المشهور «سلمان منا أهل البيت» . ومن ثم أصبح سلمان بن محمد ﷺ أو ابن الإسلام جميعا . والنظرية غنوصية واضحة ، إن من ينتقل إليه الغنوص ، سواء أكان ابنا جسديا أو غير ابن لسالفه صاحب الغنوص ، يكون هو الابن الحقيقى ، حامل الغنوص الجديد ، وخليفة السالف . ولكن إذا كان سلمان الابن الحقيقى لمحمد ﷺ عن طريق الغنوص – فلم لم يدع الأمر بعده ؟ ثم إنى أتساءل : ألا تهدم نظرية التبنى الروحى آراء الشيعة جميعا فى الإمامة ، حتى الفاطميين منهم ؟

من يكون إذن أحق بالخلافة بعد على – إذا كانت التلمذة الروحية على أساس العلم الغنوصى

---

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٧ .

المنتقل أساساً للإمامة – هل يكون الحسن إذن أم الحسين ، أم هذا العدد الكبير من تلاميذ الإمام على الذين نبغوا فى العلم الباطن والظاهر وفاقوا الحسن والحسين ؟ بل إن المصادر تجمع على أن محمد بن الحنفية كان أعلم من أخويه ، وأن أباه أطلعه على العلم اللدنى الباطنى ، وأنه سلمه إلى ابنه أبى هاشم وأن أبا هاشم نقله إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . إن نظرية التبنى الروحى تقضى على حق أولاد فاطمة فى الإمامة وهم لم يستحقوها فى نظر الشيعة القديمة والحديثة إلا لخروجهم من صلب فاطمة ، وأن أمر ولايتهم مقررة أزلا «وجعلها كلمة باقية فى عقبه» .

وهنا ننتقل إلى الغلاة ، ونحن نعلم أن من بين الغلاة من ادعى أنه صاحب الأمر – فعل بيان هذا وأبو منصور العجلى ثم أبو الخطاب الأسدى ، ثم إن أبا الخطاب ادعى بعد أنه هو «أبو إسماعيل» ثم إن عبد الله بن ميمون هو الابن الروحى لمحمد بن إسماعيل ، فنشأه . وعملية التنشئة عملية خطيرة فى المذهب الإسماعيلى ، ثم دعا إلى نفسه ولم تعترض الشيعة . وليس معنى هذا أن عبد الله بن ميمون هو الابن الوحيد لمحمد بن إسماعيل ، هو الابن الروحى فقط ، بينما كان هناك ابن روحى وجسمانى هو عبد الله الرضا ، كما أن هناك أبناء جسدين لاروحيين ، ونقل إلينا إيفانوف عبارة عن نصير الدين الطوسى ويذكر أنها موجودة فى كتب إسماعيلية أخرى : أن ذرية الإمام على أربعة أنواع : روحانية أو دار معنى مثل سلمان الفارسى – وجسمانية أو بالشكل مثل المستعلى أو روحانية وجسمانية معا مثل الحسن إمام الشيعة الثانى – وجسمانية وروحانية ودار حقيقة مثل الإمام الحسين (١)

ويرى الإسماعيليون أن المسيح كان ابن يوسف النجار فعلا جسدياً ، وأن قول القرآن «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه» أى إنكار أن يكون ولداً جسدياً لله ، بل هو ولد على سبيل التعليم (٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن المذهب الإسماعيلى الشيعى قد احتضن فكرة التبنى الروحانى أو عرفها فى هذا العصر الأول ، إن من المؤكد أنها تكونت فى أوائل العصر الفاطمى لتبرير حالة معينة أو حالات معينة . أما أن النصيرية والدروز قد نادوا بها ، فذلك أيضاً لتبرير تولى أحد أولاد القداح عرش الفاطميين الأول كان نادوا أيضاً – وبخاصة الدروز – لادعاء حمزة والدرزى بعده أنهما ابنان روحانيان للحاكم المختفى . إن حمزة بن على داعى دعاة الحاكم بأمر الله يعلن فى مواطن متعددة فى رسالته السيرة المستقيمة بشأن القرامطة أن الحاكم استخلفه حجة له ، وأنه أخذ تعاليمه من الحاكم ، فهو الابن الروحى له ، فلما قتل الحاكم أعلن حمزة أنه استتر ولم يقتل ، وأنه هو نائب عنه . وقد أداه هذا

(١) ماسينيون : سلمان شخصيات قلقة فى الإسلام – ص ١٦ .

(٢) لويس : أصول ص ١٢٠ .

إلى بحث غريب وهو أن لآدم الأول . آدم صف – أول الأوادم فى عالم البشر أباً وأمًّا . ولكن نحن لا نبحث فى هذا الكتاب فى عقائد الدروز فهى عقائد ونظريات متأخرة عن العصر الذى حددناه لهذا الكتاب .

إن نظرية التبنى الروحى – فى إيجاز تعلن أن الإمام يستطيع بواسطة عملية رفع روحى – أن يسمو بتلميذه أو تابعه أو مريده إلى درجة أو مقام قريب من درجته أو مقامه ، بحيث يستطيع أن يترك له وديعته – وديعة علمه الخاص وأن يدعو هذا المستخلف لنفسه .

والنظرية – هكذا كما عرضها ماسينيون – خاطئة تماماً . إن ماسينيون ومن أخذوا بفكرته خلطوا النظرية الصوفية ، نظرية الشيخ والمريد ، بالآراء الإسماعيلية . إن النظرية الصوفية «الشيخ والمريد» تقوم فعلا على فكرته التبنى الروحى فالمريد يعتقد تماماً أنه ابن للشيخ . يلازمه ويخدمه ويأخذ عنه معالم الطريق . ويؤمن المريد بأن من «لا شيخ له ، فلا دين له» حتى إذا تمكن المريد من مقامه ، وانتقل الشيخ ، حل المريد مكانه فى رئاسة القوم . ولم نسمع إلا فى القليل النادر أن ابناً لصوفى من صوفية الإسلام العظماء أخذ مكانة أبيه الصوفية أو اشتهر شهرة أبيه فى هذا العلم اللدنى . فنظرية التبنى الروحى صحيحة من هذه الناحية ، ثم ما لبثت أن انهدمت حين أخذ أبناء شيوخ الصوفية الجسديون يتوارثون إمامة طريق آبائهم ، وتكونت شياخات الطرق الصوفية على أساس التبنى الجسدى . أما النظرية الشيعية عامة فتقوم على التبنى الجسدى أولا وبالذات ، وأن أولاد على أو فاطمة بالذات هم أصحاب الحق الشرعى فى الإمامة يتوارثونها باصطفائهم أزلا على العالمين لهذه المهمة السامية والنظرية الإسماعيلية واضحة تماماً فى هذه الناحية ، بل إنها جعلتها فى عقب إسماعيل فقط . ففرق كبير بين «من لا شيخ له لا دين له» وبين «من مات وليس فى عنقه بيعة إمام مات كافراً» إن بيعة الإمام هنا – فى منطق المذهب الإسماعيلى – هو إمام من نسل فاطمة ، وإسماعيل بالذات ، إمام جسدى لا شك فى ذلك . أما أن الأئمة قد تبنوا بعض أتباعهم ، فلا ينكره أحد أما أنهم تركوا لهم وديعة العلم ، فكان هذا استخلافاً لهم بالإمامة . فهذا خطأ ، إنما تركوا لهم – وهذا ما لم يتبينه ماسينيون «وديعة الولد أى وديعة الولد الجسدى – للمحافظة عليه والذود عنه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، إما أن يكبر الولد ويعقب أولاد الآخرين ، وإما أن يصل إلى الإمامة . فالإمامة حق جسدى ، لمن فيه دم فاطمة الزهراء ، هذا الدم الغالى المقدس . وفى الحقيقة إن أبناء القداح فعلوا هذا بكل وسيلة ، منذ أن ترك جعفر الصادق ميموناً القداح ، وهو أحد مريديه وتلامذته حجة لابنه أو حجابا أو ولياً أو خادماً . وحافظ ميمون على الوديعة ، هو وأولاده من بعده ، بل ارتكبوا فى سبيل المحافظة عليها أشنع الجرائم وأكبر الآثام ، وفى سبيل هذه المحافظة ، تخلوا عن كل معانى الصدق والحق والخير ، فخدعوا

مجموعات هائلة من البشر ، وشوهوا عقائد الملايين ، وأثاروا النزاع والشر فى أرجاء العالم الإسلامى ، بإخلاص حاسم فذ لأبناء فاطمة من إسماعيل . حتى وضع آخر أبناء القداح عبيد الله المهدى القائم بأمر الله خليفة على القيروان . ثم انتقل إلى جوار ربه – مختتماً عمل أسرة القداح من الوجود ، بل مختتماً ذكراهم إلى الأبد .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن نظرية التبنى الروحى قد اخترعها متأخرو الإسماعيلية لتبرير عمل عبيد الله فى توليه العرش الفاطمى فى القيروان – وهو من أولاد القداح ، بينما القائم الفاطمى فى كنفه « فهى نظرية متأخرة من نظريات الإسماعيلية ، لم تعرفها الإسماعيلية الأولى ولم تحتضنها ، ولم يترك إمام علوى وديعة بمعنى علمه وبالتالى أحقية الإمامة لابن غير علوى . بل تركوا أحيانا الوديعة – الابن الجسدى – لتابع مخلص من أتباعهم ، سواء أكان هذا التابع علويا أو غير علوى وللمحافظة على الوديعة الجسدية . وهذه هى نظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . وليس معنى هذا أن فكرة الإمام المستقر وفكرة الإمام المستودع قد ظهرت فى وقت مبكر كنظرية ، ولكن لا شك أنها تحققت فى صور ساذجة » أو بمعنى أدق فى صورة المحافظة على الابن اليتيم الذى فقد أباه فى صورة مؤلمة حزينة . فقد بدأت الفكرة إذن بنوع من الوصاية الإسلامية المعروفة من عم على ابن أخيه كوصاية محمد بن الحنفية على ابن أخيه على زين العابدين ، أو كتابع أمين كميمون القداح حين أمره سيده جعفر الصادق بالمحافظة على حفيده محمد بن إسماعيل وسنعرض الآن لتطور الفكرة أو نشأتها عند الشيعة .

(ب) نظرية الاستيداع والاستقرار :

قدم لنا الأستاذ لويس نصا هاما إسماعيليا عن التفريق بين الإمام المستودع والإمام المستقر « الإمام المستودع هو ابن الإمام وأكبر أبنائه ، إن كان له كثيرون والعارف بأسرار الإمام كلها ، وأعظم أهل زمانه مادام قائما بالأمر إلا أنه لاحق له فى تفويض الإمامة إلى ذريته الذين يكونون سادة ولا يكونون أئمة أبدا . أما الإمام المستقر فهو الذى يتمتع بامتيازات الإمامة كلها . وله الحق فى أن يفوضها لأخلافه »[1] .

والنص هنا واضح فى أن الإمام المستودع لابد وأن يكون من صلب الإمام أى لابد وأن يكون ابنا جسمانيا له .

وفى هذا النص هدم لنظريات ماسينيون وللويس نفسه : الأول فيما يخص نظريته عن سلمان والثانى فيما يخص نظريته عن عبيد الله المهدى . إذن علينا أن نعدل تعريف الإمام المستقر والإمام المستودع .

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

إن الإمام المستودع : هو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها – وله كل حقوقها ، ولكنه لا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه ، والإمام المستقر فهو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها ، ثم ينقلها إلى أبنائه من بعده ولكن نلاحظ أن الأئمة المستودعين فى قائمة الشيعة الإسماعيلية كانوا جميعا علويين – اللهم إلا إذا وافقنا من يذهب من المؤرخين إلى أن عبيد الله المهدى كان قداحيا ولم يكن علوياً . ولنعرض الآن فى إيجاز لقوائم الأئمة المستودعين .

يرى الإسماعيلية أن مرتبة الاستيداع هى مرتبة النبوة والرسالة ، أما مرتبة الاستقرار فهى مرتبة الإمامة والوصاية والولاية وأن أول مستودع هو النبى إبراهيم ، وقد اؤتمن على مرتبة الاستقرار . وقد أورث إبراهيم ابنه إسحق مرتبة الاستيداع وإسماعيل مرتبة الاستقرار وتوالت المرتبتان فى أولاد كل منهما حتى انتهت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب واستودع أيضا مرتبة الاستيداع فهو إذن إبراهيم الثانى . ويورد الإسماعيلية حديثا عن الرسول ﷺ « لم أزل أنا وأنت يا على من نور واحد ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية كلما ضمنا صلب ورحم ، ظهر لنا قدرة وعلم ، حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين فى عبد الله وأبى طالب ، فقال الله تعالى – كن يا هذا محمداً ، وكن يا هذا عليا » .

وقد مات عبد الله ، فاستودع عبد المطلب مرتبة النبوة والرسالة لمحمد ، واستودع أبا طالب مرتبة الوصاية والإمامة ، فلما مات أبو طالب ، اجتمعت كل هذه المراتب لمحمد ﷺ ، فكان إليه جماع الرتب جميعها : النبوة والرسالة والإمامة والولاية والوصاية ، فهو أكمل البشر جميعا ، وأسمى الموجودات كلها ، فهو محمد الأعلى ، وهو محمد الأسمى ، وهو أول البشر ، وهو آدم الأول ، وفى يوم غدير خم سلم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى على بن أبى طالب ولأولاده الأئمة من بعده ، ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا فى الرسالة والنبوة . وستجتمع المرحلتان نهائيا ، وفى قائم القيامة ، فيكون محمدا الثانى .

ولكن ماذا كانت حقيقة على قبل غدير خم . كان محمد الإمام الناطق وعلى الإمام الصامت . وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة فى على أصبح على الإمام الناطق . وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى . وترك إمامين إماما صامتا هو القرآن وإماما ناطقا هو على واستندوا فى هذا إلى أن عليا كان يتلو فى المصحف حتى قرأ « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » فوضع المصحف على رأسه وصاح ثلاث مرات « يا كتاب الله انطق [1] » معلنا أنه الكتاب الناطق وأن القرآن الكتاب الصامت ، أو بمعنى أدق أن عليا هو التأويل ، والقرآن هو التنزيل والتنزيل كلام الله ، والتنزيل روح الله ، أليس

(١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (مقدمة الدكتور محمد كامل حسين) ص٧٥ ، ٨١ .

التنزيل هو روح التأويل والناطق والمستقر نور الله «أنا ومحمد من نور الله ، ومحمد هو «القلم» هو السابق وعلى هو اللوح وهو التالى . وهو المسيح . وهو وجه الله . ويد الله . وفى إيجاز لقد انتهت إلى الإمام المستقر ، كل فضائل وصفات السابقين . ولكن الإسماعيلين أعلنوا فى حسم وإصرار أن مقام الوصى : مقام على ، مقام الإمام المستقر أدنى من مقام الرسول ﷺ .

وانتقل على إلى الآخرة ، واستودع الإمامة ابنه الحسن ، على أن يودعها فى الإمام المستقر وهو الحسين . وبهذا حرم الإسماعيليون الحسنيين من الإمامة .

واستشهد الحسين فى سهل كربلاء ، واستودع الإمامة أخاه محمد بن الحنفية لينقلها إلى على بن الحسين وبهذا حرم الإسماعيليون أيضا الحنفيين من الإمامة . وانتقلت الإمامة المستقرة إلى محمد الباقر . ولا نجد هنا ذكراً لإمام مستودع . وانتقلت الإمامة إلى جعفر الصادق .

ويرى الإسماعيليون أن نظرية الاستيداع والاستقرار وتطبيقها ظهر على أقوى صورة لدى الإمام جعفر الصادق .

فقد مات إسماعيل ومحمد ابنه فى حال الطفولة «ولم تكن الإمامة ترجع القهقرى منه كما لم ترجع من غيره ، فأودع حجته المنصوبة بين يديه ميمونا القداح مقامه لولده ، وأقامه سترا عليه ، وقدمه بين يديه واستكفله إياه إلى بلوغه أشده ، ولما بلغ أشده ، تسلم وديعته ثم جرى الأمر فى عقبه خلفا عن سلف [1] .

ولكن يبدو أن عددا لا يستهان به من الإسماعيليين يرون أن الامام المستودع لم يكن ميمونا ، وإنما كان موسى الكاظم ؛ لأنه لابد أن يكون المستودع من الدوحة العلوية . وبهذا يكون ميمون حجة فقط لمحمد بن إسماعيل لا إماما مستودعا .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخل محمد بن إسماعيل فى دور الستر ، دور الخطر وحين أظهر الغيبة ، أى توفى ، تولى إمامة الإسماعيلية كما قلنا ابنه عبد الله ، وخلف أحمد عبد الله حتى انتهت الإمامة إلى الحسين بن أحمد .

وكان عهد الإمام الحسين بن أحمد الإسماعيلى فترة حاسمة فى تاريخ الإسماعيلية لقد قام هذا الإمام وحجته عبد الله بن ميمون القداح أولا ثم أبناؤه الحسين ومحمد أبو الشلعلع وأحمد وعلى ثانيا بنشر الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى . وكان الحسين روح الدعوة العلمية والسياسية – كما قلنا . فكتب الجامعة – كما قلنا – ليشرح بها رسائل إخوان الصفا . وأخذ يبث العلوم الشيعية ، ويعلم كبار الدعاة

(١) الخطاب بن الحسين : عناية المواليد ٣٧ .

منهج التأويل . ثم قام بحركة سياسية خطيرة – وهى إرسال الداعيين ابن حوشب وابن فضل إلى اليمن كما اتصل بالكيسانية فى الكوفة بواسطة الحسين الأهوازى ، وأرسل الدعاة إلى فارس. ومات الإمام الحسين بن أحمد . وتولى الإمامة ابنه على بن الحسين .

وهنا ندخل فى أعمق أدوار الستر غموضا . لقد عمر الحسين بن أحمد الإمام الإسماعيلى كثيرا ، بحيث مات وابنه على فى سن متقدمة ، وفى عهد الإمام على حدثت الأحداث الكبرى السريعة ، وأصبح النصر النهائى للإسماعيليين وشيك الوقوع ، ويبدو أن الإمام عليا أراد السفر إلى اليمن أو إلى المغرب فمات فى الطريق وقبل موته استخلف حجته سعيدا إماما مستودعا لابنه محمد .

يقول صاحب كتاب غاية المواليد «إنه لما ظهر النور باسقا باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله فى أرضه على بن الحسين صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب حتى كان فى بعض الطريق ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجته سعيداً الملقب بالمهدى سلام الله عليه ، فثبت قواعد الدعوة ، وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ما جرى . ووقى الله وليه سلام الله عليه كيده . لما كان من زحف أبى عبد الله عليه وظفره . واستخراج ولى الله سلام الله عليه من سجنه فلما حضرت المهدى النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها . وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الإمامة فى عقبه ، حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وطمأنت بموضعها وبموطنها (١) . وهنا يظهر تطبيق آخر لنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . ويؤيد هذا النص السابق الخطير نص للداعى إدريس عمادالدين اليمنى «إن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب ، والمهدى فى كنفه فأظهر النقلة فى سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير . وتسمى بالإمامة بأمر من نص عليه ، سترا على ولى الله وإخفاء لمقامه على أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره ، وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، سترا على ولى الله ولده القائم من بعده . ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية – سلام الله على وليها – بالمهدية وظهر أهل الكهف من كهف التقية وآن الأجل ، وانقضى المهل وسلم الإمام المهدى إلى ولده القائم رتبته وأدى إليه وديعته وأمانته وأظهر الغيبة ، وانتقل إلى جوار ربه والقدوم عليه» (٢) .

لقد كان نشر هذه النصوص من مكامنها فى الهند ولدى طائفة البهرة حافزا للباحثين على حل المشكلة العتيدة – نسب الفاطميين فى ضوء النظرية الفلسفية الإسماعيلية – الإمامة المستقرة والإمة المستودعة .

---

(١) غاية المواليد : ص ٣٧ .

(٢) النيسابورى : استتار الإمام ص ٦٦ – ٧١ .

وقد اختلف الباحثون فى هذا . فبينما يذهب كثيرون من المؤرخين الإسماعيليين القدامى وإيفانوف من المحدثين إلى أن سعيد الخير هذا هو بن الإمام الحسين الإسماعيلى يذهب لويس وقلة من الإسماعيلية والدروز إلى أنه سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح كما يذهب بعض الإسماعيلية إلى أن عبيد الله هو الإمام الثانى عشر محمد المهدى المنتظر عند الشيعة الاثنى عشرية أو أخوه : أو بمعنى أدق أنه ابن الإمام الحسن العسكرى .

يؤمن معظم المؤرخين الإسماعيليين بأن سعيد الخير أو عبيد الله المهدى هو الإمام المستودع الأخير من الأئمة الإسماعيليين وأنه ابن الإمام الحسين ، وأن الإمام على بن الحسين قد أقامه سترا على ابنه أبى القاسم القائم ، وليس فى نص غاية المواليد ما يثبت أن سعيد الخير هو سعيد بن الحسن بن عبيد الله بن ميمون ، بل إنه يذكر فقط استخلاف على بن الحسن لحجته . أما النص الثانى – نص الداعى إدريس – فهو يثبت أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين . وقد ذهب النيسابورى فى كتابه استتار الإمام [1] ، كما ذهب الداعى إدريس فى زهر المعانى إلى أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين المستور . بل يصرح النيسابورى . ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو ولد المهدى وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدى عليه السلام . فلما أتته نقلته استودع له أخاه سعيد الخير . إذ كان ولده يومئذ فى حال الطفولة .ويذهب إيفانوف موافقا الجمهور الكبير من الإسماعيليين إلى أن سعيد الخير هو ابن الحسين الإسماعيلى وشقيق على بن الحسين وعم القائم . ويؤكد إيفانوف أنه لم يحدث قط أن الإمامة انتقلت إلى شخص ليس من سلالة على ، علاوة على أن نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر لم تظهر إلا فى القرن الخامس أو السادس أى أنها نظرية حديثة .

وفى الحق إن بعضاً من حجج إيفانوف باطلة وبعضاً منها صحيحة .أما الصحيحة منها فهو أن نظرية الاستقرار لم تعرف فى التراث الإسماعيلى إلا متأخراً . ولكن لم يتنبه إيفانوف إلى أن ما يشبه هذه النظرية كان موجوداً ، وأن المتأخرين من الإسماعيلية عبروا عن أحوال المتقدمين فى صيغ حديثة ، وكبر المتأخرون المسائل وضخموها ، وصبغوها بالغنوصية وغير الغنوصية . إن من المؤكد أن على بن أبى طالب قد ورث عن رسول الله ﷺ علماً فقهيًّا وتراثاً دينيًّا . فاعتبر الشيعة عامة أن رسول الله ﷺ أطلعه على أسرار الكون ومغيبات الأمور ، وأنه أباح له هذا السر وحده ، فكان العلم السرى خاصة من خصائصه . وكبرت الصورة وكبرت ، فانطقوا عليًّا بحكمة العرب والفرس والهند وفلسفة اليونان . وكان على بن أبى طالب ربانيًّا كبيراً وتلميذاً كبيراً لمحمد ﷺ ، ولكن فى نطاق الإسلام فقط ، فأتى الغنوصيون من الغلاة ، والإسماعيليون المتقدمون والمتأخرون ، صبغوه بصورة المسيح وأفلوطين

(١) النيسابورى : استتار الإمام ص ٩٥ - ٩٦ .

وزرادشت وبوذا وديصان.. كل تبعاً لدرجة قربه أو بعده من الغلو».

واختلف المسلمون فيمن يكون الإمام، علياً أو أبا بكر ووردت عن الرسول أحاديث وسنن فسرها الشيعة والسنة – كل على طريقته . . . لا بدع بعد ذلك أن يأتى الإسماعيليون المتأخرون وأن يقولوا إن الإمامة نقلها رسول الله إلى إمام تستقر فيه الإمامة، وأن يورثها من يشاء من أولاده.

وقام محمد بن الحنفية بحركة من أخطر الحركات فى تاريخ الشيعة، وهى الانتقام من قتلة الحسين على يد تابعه المختار بن أبى عبيد، واختفى اسم على زين العابدين أو عمل محمد بن الحنفية على إخفائه، محافظة على نسل أخيه الحسين من الانقراض، فكان إماماً حافظاً وعبر الإسماعيلية المتأخرون عن محاولته المحافظة على ابن أخيه، وحفيد فاطمة الزهراء بأنه استودع الإمامة حتى نقلها إلى مستقرها.

ومات إسماعيل، أحب أبناء جعفر الصادق إليه، فوكل جعفر الصادق بحفيده أحب أتباعه إليه – ميموناً القداح، رجل على محبه، وتشيع لآل البيت وعلى علم وحكمة، وكان محمد طفلاً صغيراً. وأتى الإسماعيليون المتأخرون – وقالوا إن ميموناً كان الإمام المستودع ومحمداً الإمام المستقر.

وتنتهى الصفحة الأخيرة من الاستيداع والاستقرار بسعيد الخير والقائم، عم وابن أخ عند غالبية الإسماعيلية. فالنظرية إذن إسماعيلية حديثة، ولكن وجد ما يشابه عناصرها إلى حد ما فى تاريخ الأئمة من قبل. بل إن جميع من قاموا بالمطالبة بالحق العلوى، لم يذكروا اسم إمام معين. بل كانوا يعلنون أنهم يدعون إلى «الرضا من آل محمد» سترا على سلالة الرسول وحماية لهم. إن الدعاة العباسيين أنفسهم بدأوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد. كان إيفانوف على حق فى أن النظرية حديثة، ولكنه لم يتنبه إلى تحققها فى عصور مختلفة من تاريخ الأئمة. وإيفانوف على حق فى أن كلمة الإمام لم تطلق فى تاريخ الشيعة إلا على أفراد من البيت العلوى، فكيف إذن يطلق لفظ الإمام والمهدى على عبيد الله إذا لم يكن فعلا من نسل العلويين [1].

وأخيراً – نرى الإسماعليين المتأخرين يؤمنون بنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع، بل يحاولون استخراجها من الآيات القرآنية فى محاولة تأويلية متعسفة وأهم الآيات التى تؤيد نظرياتهم هما: «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل فى كتاب مبين» فهنا المستقر والمستودع وهما يتحققان فى كتاب مبين، أى إمام واضح كفلق الشمس. والآية «وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» وهنا أيضاً فى نظر الإسماعيلية إشارة إلى الإمام المستقر والمستودع، وأنه لا يدرك ما يفصل بينهما إلا من فتح الله بصيرته، وما أعجب هذا التأويل، وما أبعده عن حقيقة الآيتين.

---

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, P.P. 153-155

أما القائلون بنظرية التبنى الروحى ونظرية الإمامة المستودعة والمستقرة ، ومنهم لويس ، فيرون من نص الداعى الخطاب صاحب غاية المواليد أن عبيد الله المهدى هو آخر القداحين ، وأنه كان الابن الروحى للإمام على بن الحسين ، والأب الروحى لابن على – محمد بن على القائم بأمر الله . فعبيد الله المهدى ، كان قداحا – أى الحفيد الأخير لميمون القداح – حمل إمامة الاستيداع من إمامه وأبيه الروحى على بن الحسين – ثم نقلها إلى الإمام المستقر أبى القاسم محمد بن على ابنه الروحى .

كان للويس فضل التوصل إلى هذه النظرية الخطيرة وقد حاول إثباتها بكل ما لديه من حجج ، فأورد لنا نص غاية المواليد ، ثم يثبت نظرية بنصوص درزية منها : أن حمزة رئيس فرقة الدورز يذكر أنه كان لدى المهدى عبيد الله ، شىء مستودع ، وأن الحاكم (أى القائم) استرجعه ، ثم ينقل لنا لويس النص الآتى من رسالة تقسيم العلوم لحمزة بن على – وهو يتكلم عن سعيد المهدى : « وهو الذى استودعه المولى المعل جل اسمه الوديعة وأمره بخدمة مولانا القائم جل اسمه ، وكان أول ظهور المولى للعالم بصورة أسماها القائم ، وأول ما ظهر بمملكة الدنيا فى ذلك الوقت » كما أن رسالة تقسيم العلوم والدوائر ، وهى رسالة درزية تقول « لما ظهر الناطق سعيد المهدى ، وأعطاه المعل الوديعة الذى هو القائم يربيه وهو فى ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والنبوة ، فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهى السلطة ، والخلافة ، وهى دين التأويل ، والإمامة المجازية التى تظاهر الرب بها وهى بالحقيقة لقائم الحق – ﷺ . قيل إن المهدى مات » .

ويستنتج دى ساسى ويوافقه لويس أن المهدى لم يظفر بقداسة إلهية فى كتب الدروز ، بينما أضفى الدروز الإلهية على « المولى المعل جل اسمه » وهو على بن الحسين ، ثم على ابنه القائم جل اسمه ، وهو محمد بن على القائم بأمر الله وثانى الخلفاء الفاطميين . بينما احتل سعيد المهدى ، أى عبيد الله المهدى ، مرتبة أدنى من المعل والقائم وينتهى لويس إلى القول « وهكذا يتضح لنا أن هناك فرعين لنسب الأئمة : أحدهما العلويون المستقرون وثانيهما القداحون المستدعون – وذلك خلال عهد الغيبة المبتدئ بمحمد بن إسماعيل وعبد الله بن ميمون القداح والمنتهى بسعيد الخير والقائم الخليفة الفاطمى الشرعى الأول »[1]

وينبغى أن نقرر أنه خلال التحليل البارع الذكى الذى قدمه لنا لويس ، تكاد تكون مشكلة النسب الفاطمى قد حلت إلى حد ما ومن المحتمل أن عبيد الله المهدى كان قداحياً ، وأنه تولى حجابة الإمام وحجته ، ثم أعلن مهديته أيضا . وأنه احتمل المخاطر فى سبيل إقامة الدولة الفاطمية ، سواء فعل هذا لنفسه هو أو لابن الإمام على الصغير الذى أخذه معه – دون أهله – حين فر من سلمية ،

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٢ .

ولكنه لم يفعل هذا تطبيقا لنظرية الإمام المستودع والإمام المستقر فلم تكن النظرية قد عرفت ، ولم تكن عناصرها قد توضحت .

إن الحل الصحيح للمسألة ، أن عبيد الله المهدى أعلن مهديته ، لكى يحمى الإمام الصغير الذى كان يعيش فى كنفه ، وقد اشتد الخطر به . ثم خرج به من سلمية ومضى به متنقلا من مكان إلى مكان ، محافظا على وديعة جده الأكبر ميمون ، الوديعة التى تسلمها من إمام الشيعة « والد الأئمة جميعا جعفر الصادق ، أعلن إمامته ستراً له ، وتولى الخلافة لكى يمهد الأمر للقائم ، ووضعه على رأس الجيوش ، لكى يخلق منه زعيما من الطراز الأول . ولم يعرف فى هذا الوقت نظرية استقرار أو استيداع . كان عبيد الله أول من ادعى الإمامة من غير العلويين ، فعلها مرة واحدة فى تاريخ الشيعة ، حين كان المذهب الإسماعيلى فى دور الخطر . ولم يضع القائم على عرش القيروان حتى يمهد له الدولة وتسكن الفتنة .

كان أولاد القداح وآخرهم عبيد الله المهدى فرسا ، ولكنهم لم يقيموا دولة للفرس ، واتهموا بأنهم يدينون بالمجوسية أحياناً وبالديصانية أحيانا ، ولكنهم لم يقيموا دولة للمجوس أو لديصان « وإنما أقاموا دولة لبنى الفواطم من نسل إسماعيل ، واستخدموا لتنفيذ غايتهم كل وسيلة ممكنة – كما قلت .

وأخيرا – نسب بعض الإسماعيليين المتأخرين عبيد الله المهدى إلى موسى الكاظم ، واعتبروه الإمام الثانى عشر – مهدى الزمان عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، بل أنطقوا موسى الكاظم بالحديث الآتى « سئل موسى الكاظم بن جعفر الصادق عن ظهور القائم متى يكون ؟ فقال : إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور ، سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق » وقد وضعت هذه الأحاديث لإثبات نسبة عبيد الله للعلويين عن طريق النسب الموسوى . فذكر أنه ابن الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر ، وقيل إنه محمد المنتظر ، الإمام الثانى عشر .

وهذه النظرية أيضاً متأخرة . ولعلها محاولة من محاولات الإسماعيليين المتأخرين للتوفيق بين المذهب الإسماعيلى والمذهب الاثنى عشرى وإدماج الفرقتين سوياً .

وأخيراً – دخل عبيد الله المهدى أرض المغرب ، حيث كان المذهب الإسماعيلى يسود ظافرا فى كثير من أرجائها على يد الداعى أبى عبد الله الشيعى – وسنرى فى الفصل التالى – كيف نشر أبو عبيد الله الفلسفة الشيعية ، وأنشأ دار هجرة إسماعيلية ، وبنى لبنى فاطمة ملكا شامخا خلال دعوته إلى آل رسول الله .

الفصل السابع

دور الظهور

كانت الدعوة الإسماعيلية فى دور الستر ، دور الخطر ، ثم مالبثت أن انتقلت إلى دور الظهور ، دور الأمان ، فى بلاد المغرب البعيدة . فكيف حدث هذا ، وهل سادت الفلسفة الإسماعيلية حقا هذه البلاد ؟

إن قيام دولة شيعية يحكمها أحد أبناء فاطمة كان الحلم الذهبى لأجيال متعاقبة من المسلمين ، ولذلك نرى كثيرين من مؤرخى الفكر الإسماعيلى يحاولون حين تحقق الحلم الذهبى فى بلاد المغرب أن ينسبوا إلى رجل الشيعة الأكبر جعفر الصادق أنه أول من أرسل الدعاة إلى المغرب ، واختار لهذا داعيين عرفا فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية باسم الحلوانى وأبى سفيان . وتذكر المصادر أن جعفرا الصادق علمهما وسائل الدعوة السرية ، ثم ودعهما إلى المغرب قائلا : «قولا لكل شىء باطن . واذهبا ، فالمغرب أرض بور . فاحرثاها واكرياها ، حتى يأتى صاحب البذر» (١) على أنه من الواضح أن جعفراً الصادق (المتوفى عام ١٤٨ هـ) لم ينادِ بفكر الظاهر والباطن ، وأنها لم تعرف فى عهده ، ثم إن فكرة صاحب البذر فكرة متأخرة .

وقد ثبت تاريخيًّا أن الإمام الحسين بن أحمد – وهو ابن حفيد جعفر الصادق ، والمتوفى بعد أكثر من قرن من وفاة جده الأكبر ، هو الذى أمر بإرسال الداعيين – الحلوانى وأبى سفيان إلى المغرب ليغرسا فيها غرسا ، وقد فعلا . ويبدو أن اتصالها المباشر كان بابن حوشب منصور اليمن . بل يبدو أنهما تعلما الدعوة فى مدرسته ، وأتقنا فيها فكرة التأويل ، والتفسير الباطنى والظاهرى . ومارا إلى أرض كتامة بتونس ، وهى قبيلة بربرية ذات سطوة ونفوذ ، وهناك بشرا بظهور المهدى وقيام دولته . وكان كل منهما – تبعاً لتعاليم ابن حوشب يعمل منفردا . فلما ماتا اختار ابن حوشب – بموافقة إمامه الحسين وحجته محمد أبى الشلعلع – أبا عبد الله الشيعى لهذه المهمة الكبرى ، ليكون صاحب البذر . وقد كان ، كما سنرى بعد قليل .

نشأ الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الملقب بأبى عبد الله الشيعى ، بصنعاء باليمن ، وقد عرف باسم الصنعانى ، وكانت أسرته شيعية اثنى عشرية ، وقد رحل أبو عبد الله الشيعى وأسرته إلى العراق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١ .

إحدى مراكز الشيعة الاثنى عشرية حينئذ ، وعاش فى البصرة أو أحد أعمال بغداد ، وكان الرجل على تدين كبير ويسير فى زى الصوفية ، يرتدى الصوف الخشن ، والأردية الغلاظ ، بل ينسب عنه أنه كان يلبس المرقعة وهى وسم الصوفية كما نعلم ، ولذلك لقب بالصوفى ، وكان ينشر الدعوة الاثنى عشرية ، ويعلمها فلقب أيضاً بالمعلم . هذه هى نشأة الرجل الأولى حتى قابله أحد دعاة الإسماعيلية وهو أبو على – داعى مصر بعدئذ ، فحوله إلى الإسماعيلية . والإسماعيلية – كما قلنا – قريبة من الاثنى عشرية ، فكلتاهما شيعة تؤمن الأولى بإمام مستور ، وتؤمن الثانية بإمام غائب . والأمل فى إمام مستور أعظم من الأمل فى إمام غائب . فكانت الإسماعيلية إذن «منحنى» ينحرف إليه الاثنا عشرى الطامح أو العجل الذى يتشوف إلى ظهور الإمام .

وكانت الإسماعيلية تعلن اقتراب الفجر ، ظهور المهدى كالشمس الواضحة ، أما أن أبا عبد الله كان صوفيًّا ، وأنه كان يلبس المرقعة . فنلاحظ ما يأتى : أن كثيرين من غلاة الشيعة : الجعفرية والبيانية والمغيرية والمنصورية كانوا يدعون التقشف والزهد ، فلا جرم أن يفعل هذا إمامى اثنا عشرى سواء أكان غاليًا أم لم يكن ، علاوة على أننا قلنا من قبل إن عبد الله بن ميمون ، وقد تابعه أولاده على هذا ، استخدموا التصوف ، كما استخدموا الشعوذة ، والكيمياء والحيل الهندسية للدعوة للإمام الإسماعيلى .

ويذكر النويرى هذا حين ينقل إلينا الحديث المشهور بين عبد الله بن ميمون القداح ومحمد بن الحسن بن جهار نجان المعروف بدندان وهو الشعوبى المشهور فيقول : «كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن جهار نجان الملقب دندان ، وهو بنواحى الكرج وأصبهان – له حال واسعة وضياع عظيمة وهو المتولى على تلك المواضع ، وكان يبغض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع فى نواله تقدم إليه بذم العرب . فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ومايتحله من بغض العرب وصنعه النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العيون ويقدح الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة وتقربا إلى الله عز وجل بنواحى أصفهان الجبل . فأحضره دندان وفاتحه الحديث فوجده كما يحب ويهوى . وأظهر له عبد الله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال : مثلك لا ينبغى أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك . فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك إلى العرب ومن تعصب لهذا الدين . فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس ولا الهند مع بأسهم ونجدتهم .

وقد علمت شدة بابك صاحب الخرمية وكثرة عساكره ، وأنه تنسك والتزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين .

ويقول : هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام . فإنك إذا سببتهما ، سبيت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأى . ثم قال عبد الله : إن لى أصحابا وأتباعا أبثهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع . ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك [1] ومع شكى فى كثير مما جاء فى هذا الحديث ؛ فإنه من المؤكد أنه كان فى منهج الدعوة الإسماعيلية إظهار التقشف والتصوف . وقد قلنا من قبل إن الداعية الحسين الأهوازى – أو بمعنى أدق الحسين بن عبد الله بن ميمون قد قابل حمدان قرمط فى لباس متصوف زاهد قانت . وكذلك الأمر مع أبى عبد الله الشيعى ، فقد لقب بالصوفى سواء أكان صوفيًا حقيقة أم أنه اتخذ التصوف ادعاء . غير أننا نرى فى حياة الرجل فى ظروف قاسية فى صحراء المغرب ، ما يدل على روح صوفية متمكنة ، وسواه أيضا ينكر على كثيرين من الإسماعيليين فى المغرب خروجهم على قواعد الشريعة الإسلامية ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن سبب مقتله الحقيقى هو عدم رضائه عن خرق بعض التكاليف الإسلامية من رجال عبيد الله .

والصلة بين التصوف الفلسفى والإسماعيلية مجال لبحث ، لا نريد أن نقول فيه كلمتنا الآن ، ولكن من المؤكد أن هناك صلات بين الاثنين .

صحب أبو عبد الله الداعى – أبا عبد الله الشيعى إلى سلمية . وقد ذهبت بعض المصادر التاريخية إلى أن أبا عبد الله الشيعى اتصل بمحمد الحبيب أبى الإمام الحسين الإسماعيلى وأنه هو الذى أوفده إلى اليمن – إلى ابن حوشب – ليعده للدعوة فى المغرب ، وذهبت بعض المصادر إلى أن محمد الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذى أرسله إلى هناك . وسواء أكان هذا أو ذاك فقد سافر أبو عبد الله الشعيى إلى بلده الأصلى اليمن عام ٢٧٨ هـ . وهناك صحب ابن حوشب لمدة عشرة أعوام وأصبح موضع ثقته . ونمى إلى ابن حوشب موت الداعى الثانى أبى سفيان ، ويبدو أن الحلوانى الداعى الآخر كان قد مات قبلا . ورأى ابن حوشب أن يعهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى المغرب . ويبدو أن هذا قد تم بموافقة الإمام الحسين وحجته محمد أبى الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون ، وقد

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٥ ص ٣٥–٣٦ .

حفظ المؤرخون لنا كلمات ابن حوشب له «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر ، فإنها موطأة ممهدة لك» .

وانتظر أبو عبد الله موسم الحج ، ثم غادر اليمن متجها نحو مكة . وسأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم . وكان الحلوانى وأبو سفيان قد ملآ أرض كتامة بالأحاديث عن قرب ظهور المهدى ، وأن دولة العلويين ستقوم من بلاد المغرب . أى أنهما حرثا الأرض لصاحب البذر . فلما قابل أبو عبد الله الشيعى الكتاميين فى مكة رآهم يتحدثون عن مآثر أهل البيت ، ويذكرون قيام المهدى فى بلاد المغرب أفاض هو أيضا بعبارته الخلابة وحديثه الممتع فى فضائل أهل البيت ، وقرب ظهور المهدى منهم ، وكان الرجل ذا شخصية ساحرة نفاذة . فدعوه إلى زيارة بلدهم وصحبهم أبو عبد الله الشيعى – فى قصة طويلة لا تعنينا – إلى كتامة . وحين وصل أبو عبد الله أرض كتامة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ . مع حجيج كتامة أقبل الكتاميون عليه ، وتنافسوا فى إكرامه . لكن الرجل – فى حركة مسرحية ، رفض ، وسألهم أين فج الأخيار؟ فدلوه عليه . فقصده وسار إلى جبل إيكجان ، فنزل بفج الأخيار . وهناك قال لهم «هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء فى الآثار : للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ،ولخروجكم من هذا الفج ، سمى فج الأخيار» .(١)

وتسامعت البربر به ، فأتته من كل مكان ، وهنا أعلن «أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى» ولم يكن البربر يدركون مدى تنظيم الدعوة الإسماعيلية فى بلادهم . ولا تنسيقها على هاتين الدرجتين ، درجة الحرث والكراية ثم درجة صاحب البذر ، وإنما اعتبروا حضور أبى عبيد الله ، من المغيبات التى تعلو عن الأفهام ، وكانوا قوما على جانب كبير من السذاجة . فاعتبروا حضور أبى عبد الله ، وكما أعلن هو لهم – بشارات غيبية بظهور المهدى ، فتهافتوا على أبى عبد الله سايعين منتظرين «المخلص» الذى سيخلصهم من قسوة حكام البلاد العرب ، وقسوة الضرائب والمكوس ، وطالما شكوا إلى الخليفة العباسى فى بغداد ، فلم يأبه لهم ، فكان الأمل الوردى : أن يخلصهم منقذ مستور من آل البيت .

اتخذ أبو عبد الله الشيعى «دار هجرته» فى فج الأخيار ، وقد ذكرنا من قبل أن تلك كانت عادة الإسماعيلية مستنين سنة الرسول فى اتخاذ المدينة «دار هجرة» بعد أن ضاق به الأمر فى مكة . ثم استنها للإسماعيلية محمد بن إسماعيل ، حين فر من المدينة متخذاً دار هجرة فى فارس ، ثم الدعاة جميعاً فى

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٨ ص ١٢ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧ – ٣٢ .

مختلف عهود الأئمة المستورين .

تهافت البربر على أبى عبد الله ، فما هى المبادئ التى كان يدعو إليها ، هذا الصوفى ، والمعلم ، والاثنا عشرى القديم ؟ والداعية الذى لم يعرف التاريخ له مثيلا ، بطون كتامة ، والرجل الذى قيل إنه لم يتجاوز فى الدعوة – الدرجة السادسة فقط من درجاتها أى أنه لم يطلع على الدرجات السابعة والثامنة والتاسعة – الدرجات الأخيرة من الدعوة الإسماعيلية السرية .

أعلن أبو عبد الله الشيعى : أن الأمام – صاحب الزمان – من آل بيت رسول الله ﷺ ومن أبناء فاطمة حى مستتر ، وأنه المهدى المنتظر ، وقد أطل زمانه . وهنا نتساءل ، أى الأئمة كان يدعو إليهم ؟ والإجابة عن هذا السؤال أنه كان أولا للإمام الحسين ثم لابنه الإمام على . ثم نقل الدعوة للإمام القداحى ، أو الحجة والإمام : عبيدالله المهدى . ولكن كتامة لم تعرف أبداً أن عبيدالله لم يكن فاطمياً . ولم يكن أبو عبد الله الشيعى فى حاجة إلى تفسير تولى حجة الإمام ، للإمامة ، ستراً على صاحب الحق : القائم . كان أبو عبد الله – كابن حوشب – مخلصاً تمام الإخلاص للأئمة الإسماعيليين . وكان يعلم أن تولى عبيد الله للإمامة إنما كان حفظاً وستراً على ولى الأمر القائم بأمر الله . وأنه لا يمكن أن يوضع القائم على كرسى الخلافة حتى تستقر الأمور تماما فى المغرب . فكانت الدعوة إذن تتلخص فى إمام مستتر ، على وشك الظهور ، لإقامة « دولة الله » الدولة التى طالما حلم بها المسلمون فى بقاع الأرض ، حين افتقدوا على ابن أبى طالب فى يوم نحس قاتم . ومات أبناؤه من فاطمة واحداً بعد واحد تحت ظلال السيوف وبكأس السم . لإقامة دولة الله . كان الناس – والدولة العباسية تلفظ أنفاسها ببطء فى انتظار المنقذ . وأعلن أبو عبد الله الشيعى للبربر من كتامة أن المنقذ على وشك الظهور .

ولكن ما هى حقيقة المنقذ عندهم ؟ لقد حاول كثيرون من الباحثين أن يثبتوا أن أبا عبد الله الشيعى لم يذكر حقيقة الفكرة الإسماعيلية فى الإمام . وهذا خطأ . لقد أضفى عليه الرجل كل هالات القدسية بل وضّح للكتاميين أنه مظهر محمد ، ومجمع الأنبياء ، وظهور العقل الكلى ، ومجلى الله أو بمعنى أدق أعلن نظرية حلول العقل الكلى ، أو بصيغة أخف ، حلول صفات الله فى الإمام .

ولما غادر عبد الله المهدى سلمية فى طريقه إلى المغرب أذاع أبو عبد الله الشيعى بين الناس « المهدى يخرج فى هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر إلى وأطاعنى » ويذكر حديث الإمام الحسين للمهدى : أنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة ، تنو بها عن الأوطان ، وتلاقى محناً شديدة » وفسرها أبو عبد الله الشيعى بأنها رحلة إلى المغرب . ولما وصل عبيد الله إلى سلجماسة ، وقبض عليه أميرها وسجنه ، كان أبو عبد الله الشيعى مؤمناً تمام الإيمان بأن « الله سيحفظ المهدى ويقيه ، ويدفع

عنه حتى يظهره ويعز نصره» ولم يعلن أبو عبد الله اسمه – خوفاً عليه من أمير سلجماسة بل أمر فقط «بالصلاة على رسول الله ﷺ وعلى الحسين وفاطمة» وأخيراً – دخل أبو عبد الله الشيعى ظافراً إلى سلجماسة وأخرج المهدى وأبا القاسم – القائم بأمر الله.

وظهر الإمام المنتظر «والمؤمنون فى فرح عارم، يصيحون» يا خيل الله اركبى. وأبو عبد الله يمشى بين يدى المهدى يقول للمؤمنين «هذا مولاى ومولاكم أيها المؤمنون».

ظهر العقل الكلى إذن فى الإمام ووقف محمد البديل كاتب قضاعة – يقول للإمام وقد دخل مدينة رقادة:

حـــــل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش الذبيح
حل بها الله ذو المعالى وكل شىء سواه ريح

وهذا يثبت تماماً أن البربر عرفوا المبادئ الإسماعيلية الفلسفية، وأن أبا عبد الله الشيعى نشرها بينهم، بل إن بينهم كانت «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة (١).

ويقول ابن عذارى المراكشى إن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول مبادئ التشيع وعناصره، والتبرؤ من الصحابة وأزواج الرسول، ثم طبقوا الفقه الشيعى كاملا (٢). ويسرف مؤرخو أهل السنة فى تصوير الفاطميين لإمامهم. فيذكر القاضى عبد الجبار أن البعض منهم كانوا يدعونه: المهدى بن رسول الله وحجة الله على الخلق، وكان البعض الآخر يدعونه: رسول الله، والبعض الثالث يذكرون «هو الله الخالق الرازق» (٣).

ويذهب الإسماعيلية إلى العكس من ذلك ويقررون أن أبا عبد الله الشيعى لم يعلن قداسة الأئمة وتأليههم وحلول روح الله فيهم، وأنه إنما أراد فقط إقامة نظام دينى على رأسه إمام من أولاد فاطمة. وأن عبيد الله بعد ذلك أنكر الغلو وأعلن أنه لن يحكم بخلاف ما أنزل الله.

ظهر الإمام: فهل قبل عقائد التأليه، ونظرية الحلول؟ ولم يقبل عبيد الله المهدى، وقد أصبح مسئولا عن الدولة باسم آل البيت هذه العقائد أبداً: إنه لم يقبل «التشريق» أى الغلو فى الأئمة، وقد سجن كل من نادى به، حتى ماتوا فى سجنه مقيدين. وقد ذهب ابن عذارى إلى أن كثيرين من أتباع

(١) ابن حماد: أخبار بنى عبيد وسيرهم ص ١٦.

(٢) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨–١٥٩.

(٣) القاضى عبدالجبار: تثبيت دلائل النبوة (كتاب مخطوط سينشر قريباً–وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين بعض فقراته ج ١ ص ٢٠١).

عبيد الله ، كانوا يعبدونه عن يقين وأن واحدا منهم كان يصلى إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهى منه فى المغرب ، فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية ، وهى فى الشرق ، صلى إليها وكان يقول : لست ممن يعبد من لا يرى . وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : ارق إلى السماء . كم تقيم فى الأرض وتمشى فى الأسواق . وكان يقول القيروانى فى عبيد الله : إنه يعلم سركم ونجواكم » (١) .

ولكن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول تخليهم عن كل أفكار التأليه ، ولاشك أن هذه الأفكار لحقت بهم – وهم فى دور الاستتار ، وكانوا يتطلبون تأييد كل الطوائف ، ويجمعون إلى صفوف المذهب الإسماعيلى كل ما يمكن جمعه وجذبه من الفرق . فاحتضنوا كل الأفكار معتدلة وغالية ، حتى يتمكنوا من إقامة الدولة والانتقام من أعداء أهل البيت ، فاستخدموا التشيع البحت لآل البيت ، كما استخدموا الفلسفة والغنوص . فلما بدأت الدولة ، وانتصر حق آل البيت ، رأينا دولة إسلامية متشيعة معتدلة فى عقائدها إلى حد كبير .

أما القول بأن أبا عبد الله الشيعى ثار على المهدى حين أعلن هذا الأخير تأليه نفسه ، وأباح الخمر والغناء ، وأنه حينئذ قال : ما على هذا خرجنا . فقول مردود . إن أبا عبد الله الشيعى هو نفسه فى دور الستر ، أضفى على الإمام كل صفات القداسة ، بل إنه اتهم بالقول بالحلول ، ومن المحتمل كثيراً أنه نادى به وكانت فكرة الحلول توافق عقيدته الصوفية .

لقد ثار أبو عبد الله الشيعى وأخوه أبو العباس حين سلب المهدى السلطة من أيديهما ووضعها فى يديه هو . وقد استغل المهدى فكرة القداسة التى أضفاها أبو عبد الله الشيعى عليه . فأمر عروبة بن يوسف – أحد تلامذة أبى عبد الله – وممن آمنوا بقداسة الإمام بقتل أبى عبد الله الشيعى نفسه ، وحين هم بقتله صاح به أبو عبد الله « لا تفعل . فأجابه : إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٢) . وقتله فى منتصف جمادى الآخر سنة ٢٩٨ هـ . كما قتل أخاه أبا العباس وهو الذى أثار أخاه أبا عبد الله على المهدى .

وأعلن عبيد الله أنه « المطهر » أنه يطهر بالسيف أخطاء الناس . إنه يعلن للإسماعيلية فى المشرق والمغرب أنه قتل أبا عبد الله ليطهره من الرجس الذى تردى فيه لاتباعه أخاه أبا العباس . وأن قتل أبى العباس كان لتخليص الدعوة من المستكبر المصر على الإبلاس (٣) ، فطهر المهدى منه دعوته ، وتبرأ منه . وترحم المهدى على أبى عبد الله وقال : رحمك الله يا أبا عبد الله ، وجازاك فى الآخرة بقديم

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

(٣) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٦٩ .

سعيك ، ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك : «ثم قرأ المهدى الآية : «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون» .

وكتب إلى شيعته بالمشارق يقول «قد علمتم محل أبى عبد الله وأبى العباس من الإسلام . فاستزلها الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام» (١) .

إننا نعلم أن الأمويين من قبل قتلوا الحسين بن فاطمة وزيد بن على وابنه يحيى لخروجهم على حكم بنى أمية الجائر ، وحقق الأمويون بذلك قانوناً قبليّا جاهليّا ، ثم أتى العباسيون ، وقتلوا فى عهود مختلفة العترة الطيبة من آل رسول الله ، تنفيذاً أيضاً لهذا القانون القبلى ، الخروج على فخذ من قبيلة بنى هاشم . ثم أتى عبيد الله ، فاتخذ فى ضوء تعاليم أبى عبد الله نفسه – مبدأ غنوصياً ، تطهير الإنسان من الآثام بقتل الجسد – فقتل الخارج على سلطة الإمام المعصوم ، قتل جسده لتحيا روحه مطهرة من الآثام فى عالم الروح الباقى . فعلى عبيد الله هذا ، واتخذ دور المطهر ، وهو الدور الذى آمن به المقتول نفسه ، أبو عبيد الله الشيعى .

وهذا الدور – دور المطهر ، يستلزم صفة أخرى من صفات الإمام – وهى العصمة . وقد آمنت الشيعة جميعاً اثنا عشرية وإسماعيلية وغلاة بعصمة الأئمة ، مثلهم فى ذلك مثل الأنبياء ، فلا يصدر عنهم خطأ ، ولا يرتكب واحد منهم معصية . بل ذهبت مجموعة من الإسماعيلية . إلى أنهم لا يخضعون للتكاليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية ، فلا ضرر ولا ضرار ولا جناح عليهم فيما فعلوا . ويبدو أن هذا بسبب الرواية الزائفة عن شرب إسماعيل للخمر ، ولكن الإسماعيلية فى مجموعها – تنكر هذه الرواية ولا تقبلها ، كذلك معظم مؤرخى الإمامية ينكرون شرب إسماعيل للخمر ، ويعتبرونه من جلة أصحاب أبيه الإمام جعفر الصادق . وآمنت الإسماعيلية أيضاً بضرورة وجود إمام فى كل عصر . يرجع إليه فى أمور الدين والدنيا ، ويبين للناس ما استبهم من معضلات الدين .

وقد نشأ عن هذه القاعدة نظرية التعليم . أى أن الدين يؤخذ من الإمام لامن قياس ولا من رأى ويتشارك الإسماعيلية والاثنا عشرية فى هذا الأصل فالإمام عنصر إبستيمولوجى منه وحده المعرفة والعلم وقد نشأ عنه فى القرن الخامس والسادس نظرية التعليم وقد أفاض فى نقدها حجة الإسلام الغزالى وبين تهافتها ، ونظرية التعليم – نظرية متأخرة – وإن كانت بذورها قد نشأت فى عصر متقدم .

والإمام يعين بالنص . فالإمامة مستمرة مدى الحياة عند الإسماعيلية لا تتوقف عند إمام معين ، كما

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٦٤ .

يذهب الاثنا عشرية ، بل لابد من إمام معصوم مستتر أو ظاهر ، ولولا وجود الإمام ، لساخت الأرض بمن فيها ، فالإمام إذن عنصر وجودى كوزمولوجى ، خلق الكون لأجله ، ولا يوجد الكون بدونه ، ولو لم يوجد ، لما وجد الكون ، فهو مركز الكون ونقطة الوجود .

والإمام – كما قلنا – إما مستتر وإما ظاهر . سن الاستتار الإمام محمد بن إسماعيل ، وقد استتر كالليلة الظلماء ، وعبثاً حاول العباسيون الوصول إليه . وانتشر حجبه وحججه يدعون إليه ، وبلغ التخفى مداه خوفاً من «الأضداد» الذين يناهضون إقامة دولة الله ، ويحاربون ظهور القائم المنقذ من بنى فاطمة . فاتخذ الحجب والدعاة كل الوسائل الممكنة لإخفاء الإمام : «كان لشدة استتار الإمام عليه السلام ، إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف اسم إمامه . ولا يدينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى[1] .

وصيغة القسم الإسماعيلى نفسه غامضة «إن كان ما أقوله كذباً ولم أقل بانتقال الإمامة إلى السيد الحسين . ثم إلى بنيه بالنص الجلى موصلة إلى جعفر الصادق ثم إلى إسماعيل صاحب الدعوة الهادية والأثرة الباقية وإلا قدحت القداح وأثمت الداعى الأول[2] » . وكان الحجج يتسمون بأسماء الأئمة ، وكذلك كان يفعل كثير من الحدود ، فاختلف الناس فى أسمائهم فى دور الستر – إمعاناً فى المحافظة عليهم ، وعدم كشفهم للظلمة من ولد العباس . وكان هذا الستر كما قلت – ذريعة ومدخلا للأسطورة ، التى حاكت حول الإمام المستور ميزات غيبية وصفات من قداسة ورموز كمالية . ثم استخدم الإسماعيليون لدور الستر الاصطلاح الأرسطاليسى «القوة» فهو إمام بالقوة .

وأقبل دور الظهور – وبلغة أرسطو دور الفعل ، فكان للإمام فى هذا الدور ما كان له فى دور الستر – دور القوة من ميزات وصفات وقداسة ، وكان المعز فيما بعد يعلن أن الأئمة عباد مربون وخلائق فانون ، ولكن الدعاة البعيدين يعلنون تأليهه أو مشاركته للألوهية بنوع . ثم استتر الحاكم بأمر الله عند الدورز ، ولكن هذا استتار غلاة لا يسير فى النسق الإسماعيلى لدور الستر . إنما الستر عندهم هو اختفاء إمام حى ، أو هو نوع من التقية التى عرفت عن الشيعة عامة ، فلكى يتقى أعداءه ويحافظ على حياته ، يختفى الإمام ويستتر حياً . وكان ابن حوشب يدعو إلى الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٩ .

(٢) شهاب الدين بن العمرى : التعريف ص ١٥٧–١٥٨ .

ابن جعفر الصادق» أو إلى المهدى المنتظر فقط .

الإمامة مستقرة أبد الآبدين فى الستر أو فى الظهور . ويختلف أدوار الستر والظهور بين مختلف الفرق الإسماعيلية . على أن أهم أدوارها يعرف بالدعوة القديمة . بدأت الدورة الأولى فيها باستتار محمد بن إسماعيل وانتهت بنشأة دورة ثانية بتولى عبيد الله المهدى عرش الفاطميين عام ٢٩٦ هـ . ثم تبدأ الدورة الثالثة دور الستر الجديد حين اختفى الإمام الطيب بن الآمر سنة ٥٢٦ هـ وأتباع هذه الدعوة هم طائفة البهرة فى الهند . أما كيف نشأوا – فقد تولى إمامة الإسماعيلية بعد المستنصر ابنه المستعلى ، وقتل خاله ووزيره الوزير الأفضل بن بدر الجمالى الوريث الشرعى للإمامة نزاراً وابنه ، وسرعان ما تكونت الإسماعيلية النزارية على يد الحسن بن المصباح فى قلعة ألموت ، وتكونت المستعلية فى مصر ، ثم مات المستعلى وتولى الإمامة ابنه الآمر ، ولكن ما لبث النزاريون أن قتلوه ، فتولى الحافظ عبد المجيد بن المستنصر ليكون إماماً مستودعاً للطيب بن الآمر ، ولكنه ما لبث أن استبد بالأمر ، فأرسل أحد الدعاة الإمام الطيب إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن ، فأخفته هذه الملكة ، وأعلنت نفسها كفيلته وحجته ، واتخذت لنفسها لقب «كفيلة الإمام المستور الطيب ابن الآمر» ودخل الطيب بن الآمر دور الستر ، فيما يدعى الطيبيون . ثم انتقلت الدعوة إلى الهند بعد انتهاء الدولة الصليحية ، وداعيها الأكبر سلطان البوهرا ، ولكن ما زال يمثلها داع يمنى .

أما الدعوة الجديدة ، وهى دعوة النزارية – وهى التى انتهت اليوم إلى كريم خان . وبحث طائفة البهرة وطائفة الخوجات الإسماعيلية الأغاخانية ليس فى نطاق هذا الكتاب ، ونحن نبحث فقط نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام لا أواسطه ولا نهاياته ، ونؤجل الكلام فيه لبحث آخر .

وأخيراً – أختتم هذا الفصل بأن الدعوة الإسماعيلية انتشرت فى كتامة ، ثم فى بقية بلاد المغرب ، بل إنها انتشرت أيضاً فى الأندلس ، واعتنق الفلسفة الباطنية الفيلسوف الصوفى ابن مسرة ومدرسته ، وأنتقل إلى الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو البحث فى إيجاز فى الدعوة فى بلاد فارس .

الفصل الثامن

الفلسفة الإسماعيلية فى فارس

كانت فارس أول بلاد فكّر محمد بن إسماعيل فى الاستتار بها . وأرسل إليها دعاته السريين . ونحن قد رأينا من قبل أن حجته وحافظه ميمون القداح كان فارسيًّا . ويدعى الانتماء لسلمان الفارسى . ولا عجب إذن أن اتخذ محمد بن إسماعيل فارس دار هجرة له . ولا عجب إذن أن « دعاته السيارة » كانت قد غرست غرساً فى هذه الجزيرة – أى فى هذا الإقليم من أقاليم الدعوة . فأقيمت الدعوة أول الأمر باسم محمد بن إسماعيل فى فارس فغمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبل كثير من أتباعه على السياحة إليها لنصب دار هجرة لهم فيها .

وكان لمحمد بن إسماعيل – وبتأثير أستاذه الفارسى ميمون – مزاج فارسى ، يتضح فى منهجه التأويلى وفى إحاطته بالفلسفة . وكانت فارس مرتعاً خصباً لآراء الغلاة من الكوفة ، علاة على تمكن الغنوص فى مختلف صوره منها ، كما تخلفت فيها رکائز الفلسفة اليونانية منذ عهد بعيد . وفى فارس كانت الإمامية تنتشر انتشار الهشيم . وفى فارس أيضاً ومن فرس صيغ الإسلام صيغة المعتزلية . وكان أعظم فلاسفة المعتزلة فرساً . وفى فارس أيضاً وعلى أيدى علماء فرس أخذ المذهب الأشعرى – مذهب أهل السنة والجماعة صورته النهائية . فرنا ميمون القداح بعينيه إليها . وحمل ابن سيده محمد بن إسماعيل مستقراً فيها ، وهو يعلم أن عشيرته وأهله سيتقبلون المذهب الإسماعيلى أكثر مما يتقبله أهل المغرب ، سيتفهمون فكرة النطقاء أكثر من غيرهم ، وسيقبلون على عقيدة تجمع بين فلسفة الإسلام وفلسفة اليونان وكثير من غنوصيات الفرس . والفرس يؤمنون بالحق الإلهى المقدس للملوك ، وقد طال انتظارهم للمنقذ والمخلص من سلطان الأمويين والعباسيين الجائر . وهذا هو المخلص من آل فاطمة ، ومن أبناء ابنة كسرى ، الناطق السابع وخاتم الأسبوع ، القائم الناسخ لشريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها . « ولى الأولياء » ، ابن محمد ﷺ ، لم يأت بإبطال قرآنه ، بل بتفسيره وتأويله ، وإضفاء روح جديدة عليه . تعطل به ظاهر شريعة محمد ﷺ ، فيبين معانيها ويكشف أسرارها ويجليها ، ويزيل ظواهر التشبيه والتعطيل .

وكان محمد بن إسماعيل وتابعه الفارسى – وهو يمشى معه فى صورة سلمان ومعلناً أنه من نسله ، أول

دعاة المذهب الإسماعيلى فى فارس . واستتر محمد بن إسماعيل . ثم مات ومات ميمون – وتابع أئمة دور الستر وحججهم دعوتهم فى أعماق فارس وفى عمق أكثر من أى بلد آخر من بلاد المسلمين .

وكانت نيسابور حيث استقر محمد بن إسماعيل وميمون القداح من أهم مراكز الدعوة الإسماعيلية ، وفيها ولد الإمام عبد الله الرضا ونشأ وترعرع ، ثم انتقل عبد الله الرضا بعد وفاة أبيه إلى مازندران ثم الأهواز . وهو يغرس الدعوة حيثما ذهب . بل كانتْ دار هجرته الأولى فى خوزستان – والأهواز بالذات . وتفرق إخوته وأولاده فى نهاوند والرى ونيسابور وخوارزم . ونحن نعلم أن العباسيين تتبعوا أفراد الأسرة الإسماعيلية بالقتل وانتقل الإمام عبد الله هو وحجته عبد الله بن ميمون إلى سلمية حيث توفيا هناك .

ولم تترك فارس أبداً بدون دعوة – بعد محنة آل إسماعيل فيها وقتل معظم أفراد الأسرة ، بل سرعان ما وجه عبد الله بن ميمون داعية من أهم دعاته هو الداعى خلف . ويبدو أن «أول من قدم من بنى القداح إلى الرى وأذربيجان وطبرستان رجل – يسمى حلاج القطن» وأن حلاج القطن هذا هو الداعى خلف ، وأنه كان يقوم بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن الرجل من إنشاء فرقة الخليفة الإسماعيلية فى بلاد الرى وقم وفانشان[1] . ومات خلف فتولى رئاسة الخليفة ابنه أحمد بن خلف . ولما مات أحمد بن خلف تولى الدعوة الداعى غياث .

ثم أرسل عبيد الله المهدى الداعى أبا سعيد الشعرانى (عام ٢٩٧) ويبدو أنه كان على قدر كبير من العلم ، فاستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من القواد وذوى الجاه فى خراسان . يقول ابن رزام «كان عبيد الله قد أنفذ فى سنة سبع وثلاثين أبا سعيد الشعرانى إلى خراسان فموه على القواد بذكر التشيع واستغوى خلقاً كثيراً ثم قتل فى ولاية أبى بكر بن الحجاج ، فخلفه الحسين بن على المروزى» وكان الحسين بن على المروزى أميراً وكان ذا نفوذ وسطوة فى خراسان . فأقبل الناس على اعتناق المذهب الإسماعيلى[2] .

ولكن نصر بن محمد السامانى – أمير خراسان وما وراء النهر – تنبه إلى خطر الأمير حسين المروزى فقبض عليه ومات فى سجنه ، وكان أكبر تلامذة المروزى هو أبو عبد الله بن أحمد النسفى البرذعى (قتل عام ٣٣٠) بل كان النسفى أكبر دعاة المذهب الإسماعيلى فى فارس ، ويكونان هو وأبو حاتم الرازى أساس الفلسفة الإسماعيلية ، ويضعانها فى صورتها النهائية فى عهد عبيد الله . ونلاحظ أن الإسماعيلية فى فارس لم تنجح كحركة حربية . وإنما سادت فقط كنوع من الفلسفة فى بعض أوساط المسلمين

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٧٠ .

ولدى كثيرين من الأمراء وذوى السلطان ولكنها لم تؤثر فى مجموعة البلاد ، التى بقيت سنة وإمامية حتى انتصر فيها المذهب الاثنا عشرى الانتصار الحاسم حتى أيامنا هذه .

أما النسفى ، فقد تابع أستاذه حسين بن على المروزى فى نشر الدعوة بين كبار قواد وأمراء خراسان ، حتى إنه جذب نصر بن أحمد السامانى ، ولكن نوحاً بن نصر قتله فى غضون عام ٣٣١ هـ . وهو المسمى بعام المحنة . ويذكر البغدادى أن له كتاب المحصول (١) . ونقل منه نصاً واحداً - هو : أن المبدع الأول أبدع النفس . ثم إن الأول والثانى مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع (٢) . وقد سبق أن أوردنا هذا النص من قبل ومحاولة البغدادى رده إلى أصل مجوسى . وقلت إنه متأثر بأصل أفلاطونى محدث . كما يذكر ابن النديم أن له من الكتب - كتاب عنوان الدين ، وكتاب أصول الشرع ، وكتاب الدعوة المنجية (٣) . ويذكر إيفانوف فى كتابه A Guide to Ismailite Literature أن له كتاباً آخر هو «كون العالم» وهو فى رأى إيفانوف محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفكرة الأكوان والعوالم . ويبدو أنه محاولة لتفسير الآثار الفلكية فى ضوء الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

وقد رأينا طرازاً من هذا لدى أحمد الكيال من قبل . وقد عثر إيفانوف على هذا الكتاب . وقد اختفت كتب النسفى الأخرى ولا نجد لها ذكراً لدى الإسماعيلية ، اللهم إلا ما استفاد به الكرمانى من كتاب المحصول فى كتابه «الرياض» .

كان مقتل الفلسفى - كما قلت - إيذاناً ببدء المحنة الكبرى التى تعرض لها الإسماعيليون فى فارس . وقد كادت الحركة الإسماعيلية أن تتوقف تماماً فى بلاد ما وراء منذ ذلك الحين ، حتى أحياها بعد قرن ونصف من الزمان الداعى الإسماعيلى المشهور ، والمؤلف الفيلسوف ناصر خسرو (المتوفى عام ٤٥٢ أو ٤٥٣ هـ) وهو يمثل الدعوة القديمة ، وقد عينه المستنصر نائباً له وحجة ، وقام بنشر المذهب الإسماعيلى فى إيران وكون فرقة الناصرية المشهورة . وقد مهد السبيل للحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس النزاوية فى العراق والشام وإيران أما فيلسوف الإسماعيلية الهام فى هذه المرحلة ، فهو أبو حاتم الرازى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ) وأما اسمه الكامل فهو أبو حاتم عبد الرحمن الرازى الورسنانى ، وكان الداعى الإسماعيلى لعبيد الله فى الرى .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

وقد احتل أبو حاتم الرازى مكانة كبرى فى تاريخ الإسماعيلية . ويذكره المؤرخون والكتاب الإسماعيليون تحت اسم «سيدنا» . وقد عمل على نشر الدعوة أيضاً فى شكلها الفلسفى لدى كبراء الرى وأمرائهم . ونجح نجاحاً باهراً . ويبدو أن أبا حاتم الرازى كان من أشد الناس على أهل السنة . ولذلك هاجموه هجوماً عنيفاً واعتبروه باطنياً خبيثاً .

يقول ابن رزام إن أبا حاتم الورسنانى كان ثنوياً ثم صار دهرياً، ثم تزندق وحصل على الشك[1] وهـذا يخـالف الواقع . فإن أبا حاتم الرازى كان فيلسوفاً إسماعيليًا اشتهر بأنه من رجال التأويل ، وله كتاب الإصلاح ، وقد استفاد به حميد الدين الكرمانى – داعى الحاكم بأمر الله – وذكر بعضاً من تأويلاته القرآنية ، كما أن ابن النديم يذكر أيضاً أن له كتاب الجامع . وقد فقد هذا الكتاب أما أهم كتب أبى حاتم الرازى ، فهو كتاب «أعلام النبوة» . وقد بقى هذا الكتاب حتى الآن . وتبدو أهميته الكبرى فى أنه يرد فيه على الفيلسوف الملحد محمد بن أبى بكر الرازى . بل كانت هذه هى غاية الكتاب الكبرى . وهذا ما يدحض قول البغدادى بأن أبا حاتم الرازى كان زنديقاً ووثنيًا ودهريًا .

إن النظرية الإسماعيلية التى تتضح فى كتابات أبى حاتم الرازى ثم فى كتابات ناصر خسرو – فيما بعد – هى أن الطريق إلى العلم الحق ليس هو الفلسفة بل الدين وأن قائد الناس إلى السعادة ليس الفلاسفة ، بل الأئمة المعصومون من نسل فاطمة . وقد اتضحت محاربة الفلسفة أو على اعتبارها غير موصلة إلى الحقيقة لدى أبى حاتم الرازى ثم ناصر خسرو فيما بعد . وكان ناصر خسرو بالذات يرى أن ما يعارض فلسفة الفلاسفة هو حكماء الدين وأهل التأييد . وقد اختلفت الفلسفة مع علم الكلام كما نعلم . وسرعان ما أخذ دعاة الإسماعيلية جانب الكلام . وقام النقاش العنيف وقامت الحملات القاسية المستمرة بين الفلاسفة وعلماء الكلام ، وأخذت الإسماعيلية مكانها الكبير فى النقاش ، فانبرى أبو حاتم الرازى فى أعلام النبوة لمحمد بن زكريا الرازى ، كما انبرى لآرائه فيما بعد ناصر خسرو فى زاد المسافرين . وإن كان الاختلاف عنيفاً بين آراء الفلاسفة وآراء الإسماعيلية فى مسائل هامة وبالأخص مسألة «حدوث العالم» «والخلق» حيث وقف الإسماعيليون – كفرقة دينية إسلامية مع فلسفة الكلام . فإن الإسماعيلية – خلال تبادل الأسلحة – أخذت من الفلسفة اليونانية بعض عناصرها ، بل إن أبا حاتم الرازى وناصر خسرو يعارضان أحياناً مذهب محمد بن أبى بكر الرازى الأفلاطونى بأرسطو . كما يأخذ الكثيرون من الإسماعيلية بالأفلاطونية المحدثة .

ويرى بينيس أن الإسماعيلية موقف وسط بين الفلسفة والكلام . فبينما أخذوا من الفلسفة بعض

---

(١) ابن النديم : الفهرست .

الأسلحة فإنهم أخذوا من الكلام جوهره – كحدوث العالم مثلا – بل أخذوا أيضاً مصطلحه . فالدعاة الإسماعيليون – وناصر خسرو بالذات – ينكرون أن يوصف الله بأنه علة « ويرون أنه لا يجوز أن يسمى بالعلة الأولى إلا العقل وحده ، أما الله فهو يسمى عالا أو مخصصاً ويرى بينيس أن اللفظ الأول قد انتشر عند الدروز ، أما اللفظ الثانى – وهو المخصص فهو مصطلح كلامى بحت – استخدمه المتكلمون الأوائل ثم ظهر لدى إمام الحرمين والغزالى . فهؤلاء جميعاً يصفون الله بأنه مخصص فى مقابلة وصف الله بأنه علة . وقد ظهر هذا المصطلح مطلقا على الله – حين ثارت مشكلة خلق الزمان : هل خصص الله زماناً معيناً دون سائر الأزمنة لخلق العالم ؟ أما الأشاعرة فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الإجابة على هذا السؤال . فلله الحرية المطلقة والإرادة الكاملة والاختيار التام بينما يذهب أبو القاسم البلخى إلى رأى متأثر بالفلسفة اليونانية إلى أن الله خصص ذلك الوقت على سبيل الوجوب ، وأن حدوث العالم غير ذلك الوقت كان يصلح لذلك [1] .

ولسنا هنا نحاول شرح نظريات ناصر خسرو فهى فى جملتها إسماعيلية مع أخذ بنظريات أرسطو فى المسائل الطبيعية وإنما نعود إلى فيلسوف الفترة التى نؤرخ لها وهو أبو حاتم الرازى وموقفه من فيلسوف الإلحاد الكبير محمد بن أبى بكر الرازى .

كان محمد بن أبى بكر الرازى يدين بمذهب أصحاب الهيولى القديمة ، ويذهب إلى القول بأن القدماء أوالجواهر خمسة : البارى والنفس والهيولى والزمان والمكان وقد انتهى الباحثون إلى القول بأن آراء محمد بن أبى بكر الرازى أفلاطونية فى جوهرها أو أنها على الأقل تعود إلى الأقوال المأثورة عن أفلاطون فى العالم الإسلامى . ووقف أبو حاتم الرازى لمحمد بن أبى بكر الرازى مدافعا عن وحدانية الله ، وتفرده وحده بالقدمية وقد أورد أبو حاتم الرازى فى أعلام النبوة مناقشته لمحمد بن أبى بكر الرازى فى قدم الخمسة وقدم الزمان بالذات . يقول أبو حاتم : « وطالبته أى الرازى فى مجلس من مجالسنا – وقلت له : أخبرنى . ألست تزعم أن الخمسة قديمة ، لا قديم غيرها ؟ قال . نعم . قلت : فإنا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمر الأيام والليالى وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟ قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة ، لأن هذه كلها مقدرة على حركات الأفلاك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها . والفلك وما فيه محدث وهذا قول أرسطاطاليس فى الزمان ، وقد يخالفه غيره . وقالوافيه أقاويل مختلفة وأنا أقول : إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور . فالمطلق هو المدة والدهر وهو القديم ، وهو متحرك غير ثابت ، والمحصور وهو الذى يعرف بحركات الأفلاك ويجرى

(١) بينيس : مذهب الذرة .. ص ٢٩ ، ٤٠ .

الشمس والكواكب . وإذا ميزت هذا وتوهمت حركة الدهر فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد والسرمد . وإن توهمت حركة الفلك . فقد توهمت الزمان المحصور ، هذا هو رأى محمد بن زكريا الرازى فى الزمان المطلق ، الزمان القديم ولكن أبا حاتم – وهو يؤمن بحدوث الزمان ، وأن الله لا فى زمان – يتساءل « أوجدنى للزمان حقيقة نتوهمها ، فإنا إذا رفعنا حركات الفلك ومر الأيام والليالى وانقضاء الساعات عن الوهم ، ارتفع الزمان عن الوهم فلا يعرف له حقيقة ، فأوجدنى حركة الدهر الذى ذكرت أنه الزمان المطلق – قال : ألا ترى كيف ينقضى أمر هذا العالم بمر الزمان . طف طف طف هو شىء لا ينقضى ولا يفنى . وهكذا حركة الدهر إذا توهمت الزمان المطلق » .

ولكن إذا كان الزمان – المطلق من حيث هو مبدأ أزلى ينطبق على الله ، وأن الله فى زمان . وقد مضى هذا الزمان الذى كان فيه الله ولا عالم معه وانتهى ، فالله إذن أول ، إذا سلمنا بحدوث العالم ، وسيكون له آخر ، فالله متناه[1] .

ويتبين من المناقشة موقف أبى حاتم الرازى من الرازى الآخر الملحد . الأول يدافع عن تنزيه الله ويثبت حدوث العالم ، والآخر يثبت أن القدماء خمسة ، وأن الزمان المطلق قديم .

إن من الواضح أنه يمكننا أن نقول الآن : إن المذهب الإسماعيلى فى فارس كان ذا صورة فلسفية ، تحاول أن تدعم المذهب الإسماعيلى أولا أمام أهل السنة وأمام الشيعة الإمامية ، ثم أن تناقش الملاحدة من فلاسفة ومجوس مناقشة عقلية ، ولذلك لم يتميز المذهب بحماس حربى فى هذه الفترة . ولكنه أنتج فى تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام تراثاً ضخماً . وأشعل حركة فكرية ممتازة كان من نتاجها أبو يعقوب السجزى السجستانى المشهور ببندانه أو دندان والذى ذكر إيفانوف والدكتور حسن إبراهيم خطأ أنه توفى عام (٣٣١ هـ) بينما من الثابت أنه وضع كتابه الأفكار سنة (٣٦٠ هـ) وأن الكرمانى تتلمذ عليه . وقد توفى الكرمانى بعد عام ٤١١ هـ فالسجستانى إذن لم يكن من رجال النشأة – أو رجال عصر عبيد الله المهدى ، بل من المؤكد أنه كان من دعاة الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله الفاطمى – هذا العصر الذى أخرج أيضاً علماء كباراً كجعفر بن منصور اليمنى والقاضى النعمان (المتوفى عام ٣٦٣ هـ) .

وتتابع دعاة المذهب وفلاسفته – كالكرمانى داعى الحاكم بأمر الله فى فارس والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر المتوفى عام (٤٧٠) ثم المتأخرون كناصر خسرو ، والحسن الصباح

(١) ينيس : مذهب الذرة .. ص ٥٥-٥٦ .

(٥١٨ هـ) ثم أبو الحسين سنان بن سلمان بن محمد . راشد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل (٥٩٠ هـ) .

تلك هي الدعوة الإسماعيلية فى فارس منذ نشأتها حتى عهد عبيد الله : مذهب شيعى استخدم الكلام من ناحية ونظرية الإمامة من ناحية وبشكل خاص ، ثم مزج هذا بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة أحياناً وبالفيثاغورية أحياناً أخرى على قدر تطرف الدائرة الإسماعيلية أو عدم تطرفها . ولجأت الإسماعيلية إلى التأويل الباطنى للقرآن مع المحافظة على الظاهر ، وهذا ما يجعل الإسماعيلية – على خلاف ما ذهب الكثيرون من الباحثين – مختلفة تمام الاختلاف عن الباطنية الخالصة . تؤمن الباطنية بالباطن فقط ، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر وبالباطن وقد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخى الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية والمجوسية التى انتشرت فى فارس وكثيراً ما اعتبر أهل السنة والجماعة الخرمية إسماعيلية كما نسبوا إلى الإسماعيلية التناسخ والحلول .

أما التناسخ – فلم تقل به الإسماعيلية قطعاً . بل حاربته حرباً عنيفة . حقا : لقد ذكر عن أبى يعقوب السجزى نوع من التناسخ . فذكر البيرونى أن أبا يعقوب يقول « إن الأنواع محفوظة وأن التناسخ فى كل واحد منها غير متعد إلى نوع آخر (١) . أى أن أبا يعقوب يرى أنه من الممكن أن تتناسخ روح إنسانى فى جسد إنسانى آخر ، وأنه من المستحيل أن تتناسخ روح إنسانى فى جسد حيوانى أو نباتى ولكن لم تكن هذه أبداً عقيدة الإسماعيلية . ومن المحتمل كثيراً أن تكون بعض عقائد التناسخ دخلت بشكل ما فى عقائد المتأخرين من كتاب الإسماعيلية – كالسجزى وغيره .

أما الحلول – أى حلول الله فى الأئمة – فلم يذهب إليه الإسماعيلية . بل أنكر الأئمة الظاهرون فكرة تألههم تمام الإنكار . كما أننا لا نجد فى كتابات فلاسفة المذهب ، التى بين أيدينا اعتقاد ألوهية الأئمة : ولكن لاشك أنه كان هناك غلاة فى الأماكن البعيدة فى فارس نادوا بألوهية الأئمة أو بحلول روح مقدس فيهم . لقد حدث هذا من قبل لدى غلاة الإمامية ، ثم حدث من بعد لدى الدروز – حين ألهوا الحاكم بأمر الله . ولكن الإسماعيلية ذهبوا إلى تجلى العقل الكلى تجلياً كاملا فى الأئمة ، فكان الإمام مصدر معرفة ، والمقصود بالمعرفة هنا ما يفيض من علوم على أتباعه وقد كان مركز الدائرة فى هذه العلوم « التأويل القرآنى » ولكن لم تنسب المعرفة الغيبية ولا الاطلاع على عوالم الغيب للأئمة . بل أنكرها هؤلاء . وقد حاول بعض الباحثين فى حياة المعز وفى عصره ، أن يثبتوا أن عقيدة تأليهه سادت

(١) البيرونى : تحقيق .. ص ٤٩ .

فارس . وهذا عصر متأخر – كما قلت عن العصر الذى تؤرخ له . ولكن من الثابت أنه لا المعز نفسه ولا دعاته أعلنوا ألوهيته . وفى عصر متأخر عن عصر المعز أى فى عصر الحاكم – سيعلن حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير أن الحاكم نفسه بشر ولاحظ له من الألوهية . وقد حارب الكرمانى جميع دعاة ألوهية الحاكم حرباً فكرية عنيفة . كان هناك إذن غلاة ومعتدلون . وكان المذهب المعتدل ينتصر دائماً .

كما أن ثمة دعوة خطيرة تنسب إلى الإسماعيلية – وهى دعوة – وحدة الأديان وهذه الدعوة تنسب أيضاً للصوفية فيما بعد ، وقد قيل إن هذه كانت الغاية الأولى من دعوة محمد بن إسماعيل نفسه ، إنه الناطق السابع الذى أتى بدين جديد – هو الدين السابع – ناسخا لدين محمد ﷺ . وأنه لذلك أعلن أو أعلن الإسماعيليون : للزرادشتيين أن عليًّا هو زرادشت وللمانويين أنه مانى وللمزدكيين أنه مزدك ولليهود أنه موسى وللمسيحيين أنه عيسى وللمسلمين أنه محمد . فعلى هو مظهر حلول هؤلاء جميعاً . والإسماعيلية تحوى مذاهبهم جميعاً وقد سمى لويس هذه العقيدة باسم مذهب الشمول Interconfessionalism .

ويرى لويس أن « الدعوة الإسماعيلية صادفت هوى فى نفوس جماعات مختلفة فى العنصر الدينى : مزدكيين ومانويين وصابئين وشيعة وسنة ومسيحيين ويهود من كل نوع . فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قويا من مذهب الشمول فى العقيدة تقرب أحياناً من مذهب عقلى خالص . وقد سبقتهم إلى هذا ، وربما تأثروا بها عيسوية أصفهان ، وهى فرقة يهودية أدعت فى أثناء خلافة عبد الملك الأموى بأن محمداً وعيسى كانا نبيين صادقين بالنسبة إلى وطنيهما وشعبيهما اللذين ظهرا منها . فطور الإسماعيليون هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً ، أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها [1] » فلويس إذن يقرر أن الإسماعيلية نادت بصحة الأديان جميعاً ، وأنها تأثرت فى هذا خطى فرقة يهودية هرطوقية تنسب إلى أبى عيسى ، وكان يحترف الخياطة فى أصفهان . وادعى أنه المسيح فى أيام الملك بن مروان (٥ – ٨٦) وكان يحرم الخمور ويعتقد فى تطور الإنسان وأوصى أتباعه بقراءة الأنجيل والقرآن . ولما قضى عليه قال أتباعه : إنه فى الغيبة [2] .

ويرى لويس أنه وضع منذ ذلك التاريخ القديم – عقيدة الإسماعيلية المتأخرة فى نسبية الأديان والنبوة .

---

(١) لويس : أصول... ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٩٦ .

ويذكر لويس أن العيسوية أثرت فى الإسماعيلية وأنها أخذت بعقيدتها الشاملة لجميع العقائد ولكن لويس كعادته يتكلم عن المرحلة المتأخرة للإسماعيلية ويستند على كتب الدروز. فيقول «ونجد فى كتب الدروز إشارات للتوراة والإنجيل، بل هناك ترجمة فارسية لموعظة الجبل بتفسير إسماعيل. وقد ذكر بنيامين التطيلى أن الدروز فى سورية كانوا أصدقاء مخلصين لليهود، وكان فى فارس مجتمع يهودى يعيش تحت حكم الإسماعيلين ويصحبهم كلما ذهبوا للحرب»[1] ثم يذكر أن حمزة بن على يقول فى رسالة السفر إلى السادة بأن عقيدة الوحدانية – أى عقيدة تأليه الحاكم نسخت جميع العقائد الأخرى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والإسلام، وما اتصل بهذه الأديان من نحل وفرق.

وليس بين شمولها هذه الأديان وبين قيامها مقامها إلا خطوة واحدة. بل إن الإسماعيلية نفسها وضعت أحاديث عن الباقر أنه قال «إذا قام قائمنا أهل البيت، قسم بالسوية، وعدل فى خلق الرحمن، البر منهم والفاجر منهم، من أطاعه أطاع الله، ومن عصاه عصى الله، ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل القرآن بقرآنهم».

ونلاحظ أن المزاج اليهودى للويس غلب عليه، فراح ينسب الإسماعيلية إلى العيسوية اليهودية، ثم يثبت فكرته من شواهد متأخرة درزية، والدرزية من غلاة الإسماعيلية، وليست إسماعيلية خالصة. ويحاول لويس أن يثبت أثر اليهودية والمسيحية فى حميد الدين الكرمانى لمجرد إلمامه باللغتين العبرية والسوريانية واستفادته من أقوال من العهدين القديم والجديد.

إن الإسماعيلية مذهب شيعى اعتنق العقيدة المعتزلية. ولكنه وهو فى خلال الستر دعا الجميع إلى عقيدته – عقيدة شيعية لفرع من فروع البيت العلوى الفاطمى ولا شك أن طوائف متعددة قد استجابت للدعوة، وحاولت أن تضعها فى صورة عقائدها السابقة. كما أن الدعاة وصلوا إلى الجزر البعيدة أى الأقاليم البعيدة وفى هذه الأقاليم البعيدة صوروا الدعوة صوراً تخالف الدعوة الرئيسية. وطالما تبرأ الأئمة من هذا الغلو كما تبرأ منه من قبل الباقر والصادق وغيرهما من الأئمة الأوائل. ثم إن الكثير من الفرق الباطنية الإلحادية قد تستّرت باسم الإسماعيلية ولم يجد بعض الدعاة ضيراً فى محاولة ضم هذه الفرق إلى المذهب الإسماعيلى الخالص، ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية الخالصة لم تنجح نجاحاً كاملا لدى البعض من هذه الفرق. وبقيت هذه الفرق – كما هى – فى باطنها مزدكية أو مانوية أو زرادشتية أو ديصانية مع مسحة إسماعيلية ظاهرية.

---

(١) لويس: أصول... ص ١٦.

أما موقف الإسماعيلية من المسيحية واليهودية . فهو تماما يشبه موقف الإمامية وأهل السنة . أنكروا ألوهية المسيح وحلول الله فيه كما أنكروا صلبه أما الغلاة من الإسماعيلية ، ثم الدروز والنصيرية ، فلهم عقائدهم الخاصة التى تتميز وتختلف تمام الاختلاف عن عقائد وفلسفة الإسماعيلية .

ولا شك أن فكرة نسبية الأديان ، وصحتها جميعها ، وتعبير كل واحدة منها عن وجهة نظر ، قد عرفت لدى بعض فلاسفة الصوفية ، وبخاصة لدى الحلاج والشلمغانى . وهؤلاء من ضحايا النصوص الباطنى الخالص مع مسحة شيعية ظاهرة ثم ظهرت الفكرة لدى محيى الدين بن عربى . وقد كان محيى الدين بن عربى يعتبر « دين الحب » – وهو الإسلام عنده – يشمل الأديان جميعا ، وقد قرر الإسلام فعلا أن الدين واحد ، ولكن على أساس أن الأديان السابقة قد حرفت وغيرت وبدلت ، وأن عقيدة التوحيد هى أساس النبوة والرسالة فى كل دورة من دورات الرسالة والنبوة . ولكن الباطنية استغلوا هذا المبدأ – وقالوا : إن كل عقيدة – مهما كانت صورتها الحالية – صحيحة . وبينما الفكرة القرآنية فكرة دينية بحتة ، نرى فكرة وحدة الأديان عند الباطنية وعند فلاسفة الصوفية غنوصية مجمعة ملفقة .

وقد استندت « البهائية » المتأخرة فى الظهور إلى محيى الدين بن عربى . وقررت فى نصوص تكاد تكون هى نص عباراته صحة الأديان جميعا – الزرادشتية واليهودية والمسيحية . . إلخ . لقد ظهرت الفكرة إذن فى أجزاء من فارس – موطن الأديان القديمة – وترعرعت ونمت ، إما باسم الباطنية المجوسية الفارسية القديمة ، وإما باسم التشيع إماميا كان أو إسماعيليا . ولكنها لم تكن عقائد الإسماعيلية الحقيقية : لا فى نشأة الإسماعيلية ولا فى تطورها . أما الإسماعيلية فى عهد الظهور فقد تناولها الغلو من ناحية والاعتدال من ناحية . الغلو حيث ابتعد الدعاة عن الإمام . والاقتصاد حيث عاش الإمام . وقد رأينا كيف أعلن الدعاة فى فارس تأليه المعز الفاطمى ، والمعز الفاطمى على منابر القاهرة يعلن أنه عبد مربوب وبشر مخلوق . فلم تناد الإسماعيلية إذن بشمول العقيدة ولا بنسبية الأديان .

ومن المضحك أن يذكر بعض ثقاة المؤرخين من أمثال لويس والدكتور حسن إبراهيم أن من الدلائل على إيمان الفاطميين بشمول العقيدة وصحة كل العقائد استخدام الفاطميين فى عهد ظهورهم لليهود وللنصارى . ونسوا أن خلفاء بنى العباس بل والأمويين من قبل استخدموا اليهود والنصارى والصابئة . وكان لهم النفوذ الأكبر فى قصور بنى أمية وبنى العباس . ومن العجب أيضا أن يقال : إن فارس كانت موطن الغلو فى الأئمة الفاطميين . ثم يأتى حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير إلى مصر ليحارب تأليه الحاكم وغلو أتباعه كحمزة والأخرم والدرزى ، ويكتب الكتب الكبيرة فى هذا . ولم تنجح الدعوة الإسماعيلية فى فارس ، بل نجحت فى الشام ومصر والمغرب واليمن – وكلها

بلاد عربية ، وفشلت فى فارس التى بقيت سنية إلى عصر متأخر ، ثم ساد فيها المذهب الاثنا عشرى حتى الآن .

وكما نسبت نظرية الدين الكلى للإسماعيلية مأخوذة عن اليهودية العيسوية ، نسبت الشيوعية الدينية إلى الإسماعيلية مأخوذة عن المزدكية . ونسب الكتاب السنيون هذه الشيوعية إلى مزدك . وقد ذهب نظام الملك فى سياسة نامة كما قلنا من قبل إلى أن حلقة الوصل بين المزدكية والإسماعيلية كانت « خرمة » امرأة مزدك التى أسست الفرقة الخرمدينية . وأن هذه الحركة الخرمدينية تحولت إسماعيلية أو متسترة بالإسماعيلية لأسباب انتهازية . وظهرت العبارة « وقد أصبح مزدك شيوعيًا » ولكن لويس نفسه يشك فى اتصالات الخرمدينية بالإسماعيلية ، ولم تكن الإسماعيلية – وهى حركة تتجه نحو جذب العالم الإسلامى كله إليها – من الحماقة بحيث تربط عجلتها بحركة مجوسية ذات عداوة ضارية للإسلام وللمسلمين . لاشك أن القرامطة أقاموا مجتمعا تعاونيا نقابيا . وقد وصفه لنا ابن حوقل وناصر خسرو . ولكن الإسماعيلية الخالصة لم تعرف هذا النوع من الجمهورية الأوجرجية ولم تعرف الشيوعية . ونسبت إلى الإسماعيلية مراتب الدعوة السبعة أو التسعة ، وهى باطنية بحتة ، حاول المؤرخون السنيون صبغها بصبغة إسماعيلية وهى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية .

ولقد صدق البغدادى حين قال « الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ، كما صدق حين قال « إن الباطنية لهم فى اصطياد الأغنام ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها ، التفرس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالإيمان والعهود ، وآخرها الخلع والسلخ » كل هذا حق . ولكن من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هى الإسماعيلية ، هى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية ، وإن كانت قد شابتها مسحة إسماعيلية .

ونهاية الأمر : إن الإسماعيلية مذهب شيعى ، انحرف بلا شك عن الإسلام السنى والإسلام الاثنى عشرى . وفيه الغلو وفيه الاعتدال . وقد كان فى دور الستر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلما دخل فى دور الظهور كون دولة من أعظم دول الإسلام – وهى الدولة الفاطمية ، ولما عاد إلى دور الستر ، حيث يعيش الآن ، أصبح مذهبا سريا يمزق فى عصورنا الحاضرة وحدة المسلمين ، ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيانه .

تم بحمد الله

تعليقات نقدية

على مصادر الكتاب

شغلت الشيعة قديماً وحديثا العدد العديد من الكتاب والمؤرخين والباحثين ، وكتبت عنها كتب مختلفة ذات مشارب متباينة . ولما كانت أغلب فرق الشيعة – اللهم إلا الإمامية ثم خليفتها الاثنى عشرية – فرقاً سرية ، فقد تناول الغموض كثيراً من عقائدها وأسرارها وطقوسها . كما أن كتب بعض مفكرى الشيعة أنفسهم قد باد أو اختفى ، فلم نعد نعرف الكثير عن كتابات هؤلاء المفكرين . ومن الغريب أن الشيعة الاثنى عشرية لا تحتفظ فيما لدى من معلومات بكتاب من كتب « هشام بن الحكم » فيلسوف الشيعة الكبير والممثل الأعظم للفكر الكلامى الإسلامى فى عصره وفيما تلاه من عصور ، ولمدة طويلة من الزمن . فلا نعرف من آراء هذا الفيلسوف الكبير إلا ما نقل إلينا خلال إلزامات أعدائه من المعتزلة وأهل السنة ولعل السبب إغفال الشيعة الاثنى عشرية له ، وعدم اهتمامهم به نزعة التجسيم التى تخالف اتجاههم العقلى المعتزلى فلم يظفر هشام بن الحكم بالكثير من اهتمامهم ، ولم يحتفظوا بكتبه . وهذا بالرغم من أنهم أرخوا له .

بل إن كتب الشيعة – وهم رواد الكتاب العربى الأوائل فى العالم الإسلامى – لا تمدنا أيضا بمعلومات مؤكدة عن كثير من عناصر المذهب فى أول نشأته ، إن الحماس الدينى جعل كتاب الشيعة يتخبطون فى تحديد نشأة المذهب .

ثم نرى أيضا أن روح التمحيص والبحث ينقص هذه الكتب إن قصة عبد الله بن سبأ ، وهى قصة – ابتدعها فيما يرجح الأمويون فى الشام ، لا تناقش فى كتب الشيعة الأقدمين . إنما اكتفوا فقط بالقول بأن عبد الله بن سبأ كان من الغلاة ، وأن الإمام عليا قد تبرأ منه .

كما أننى لا أجد أيضا موقفا معينا واضحا للشيعة تجاه المختار بن أبى عبيد . اللهم إلا ما ورد فى كتب بعض الطبقات من أن الأئمة كالباقر والصادق وغيرهما – قد ذكره بخير وترحم عليه وقد حمل الآن أفظع الآراء ، وكتبت قصة حياته وجهاده واستشهاده على أسوأ ما يكون . والرجل من كل هذا براء ، كما بينت فى بحثى ولقد كان المختار رجلا من محبى آل البيت ، وضحى بحياته فى سبيلهم ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يتولى الشيخين .

وتأتى المشكلة الكبرى – وهى مشكلة الرواية . فقد اختلفت رواية الحديث عند كل من الشيعة والسنة . فلكل طائفة رواتها وأسانيدها . وتختلف الأسانيد اختلافا بينا . وتناولت الطائفتان – بالجرح – أسانيد الرواة ، بحيث يقف الإنسان فى حيرة أمام التعارض العنيف بين أحاديث الطائفتين . غير أن النظرة الفاحصة سرعان ما تتصل إلى عناصر مشابهة فى قواعد الجرح والتعديل لدى الطائفتين ، بحيث تبقى فقط مشكلة التأويل : تأويل الحديث أو الأثر . هذا يؤول بطريقته ، وذاك يؤول بطريقته .

أما كتب العقائد – وما أوفرها فى التراث العربى – فقد أمدتنا بمعلومات كثيرة ، ولكنها فى غالب الأمر فى صورة « إلزامات » فاختفى المذهب الحقيقى . أو فى صورة جدل ، والمنهج الجدلى لا يوصل إلى حقيقة .

فإذا انتقلنا إلى كتب التاريخ ، فنرى كل مؤرخ قديم يكتب على طريقته . وأعنى بطريقته هنا – مذهبه العقائدى فكتابات اليعقوبى والمسعودى الشيعيين تختلف عن كتابات الطبرى وابن كثير السنيين . وكتابات ابن حوقل ناصر خسرو الإسماعيليين تختلف عن كتابات ابن خلدون السنى المعتدل والمقريزى ذى النزعة الشيعية المعتدلة .

ومن الأفضل أن نقسم مصادر هذا الكتاب القديمة إلى القسمين الآتيين : مصادر سنية ، مصادر شيعية ، وقد امتلأت هوامش الكتاب بهذه المصادر ولن نكرر أسماءها هنا ، ولكننا سنقدم تعليقات موجهة على بعض منها .

المصادر السنية

١ – أول كتاب من كتب أهل السنة يحدثنا عن العقائد الشيعية هو كتاب أبى الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وهو كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (نشر عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٤٩ م) .

ويعتبر هذا الكتاب من أقدم كتب العقائد الإسلامية . كاتبه « حشوى » ولكنه قدم لنا معلومات طريفة عن عقائد الشيعة الأوائل . وبخاصة فرق السبئية كما أنه كتب فصلا عن عقائد القرامطة والديلم ، وهذا الفصل يمثل العقائد الباطنية المنتشرة فى فارس والتى لصقت بالإسماعيلية – وهذه صورة منه « القرامطة والديلم – وهم يقولون : إن الله نور علوى لا تشبهه الأنوار ، ولا يمازجه الظلام ، وأنه تولد من النور العلوى النور الشعشعانى ، فكان منه الأنبياء والأئمة ، فهم بخلاف طبائع الناس وهم

يعلمون الغيب ، ويقدرون على كل شيء ولا يعجزهم شيء ، ويقهرون ولا يقهرون ، ويعلمون ولا يعلمون ولهم علامات معجزات . وأمارات ومقدمات . قبل بحثهم وظهورهم . وبعد ظهورهم يعرفون بها . وهم مباينون لسائر الناس فى صورهم وطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم » .

« وزعموا أنه تولد من النور الشعشعانى نور ظلامى . وهو النور الذى تراه فى الشمس والقمر والكواكب والنار والجواهر . الذى يخالطه الظلام وتجوز عليه الآفات والنقصان وتحل عليه الآلام والأوصاب ، ويجوز عليه السهو والغفلات والنسيان والسيئات والشهوات والمنكرات » .

« غير أن الخلق كله تولد من القديم البارى ، وهو النور العلوى الذى لم يزل ولا يزول ، سبق الحوادث ، وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله . قدره نافذ ، وعلمه سابق . وأنه حى لا بحياة ، وقادر لا بقدرة ، وسميع بصير لا يسمع ولا يبصر ، ومدبر لا بجوارح ولا آلة فيصفون الإله جل وعز – كما يصفه الموحدون مع قولهم إنه نور لا يشبه الأنوار » .

« ثم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض وإنما هو شكر للمنعم ، وأن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه ، وإنما ذلك شكرهم ، فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل ، والاختيار فى ذلك إليهم . وزعموا أنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، ولحق روحه بالنور الذى تولد منه ، حتى يرجع كما كان . . . إلخ .

هذا فصل من أهم الفصول – وهو يحدثنا عن عقائد الباطنية التى تسربت باسم الإسماعيلية فى فارس . ويعطى الملطى مقارنات دقيقة بين عقائد هذه الفرقة وبين النصارى فى بعض أجزاء المذهب . ثم ينتهى إلى القول بأن « سبيلهم سبيل المنانية سواء . والرد عليهم فى النور كالرد على المنانية » ٢٦ – ٢٩ فالرجل ذو منهج مقارن وله نظرات نقدية رائعة . ولكن يؤخذ عليه فى كثير من المواضع خلط الفرق بعضها ببعض وكثرة الإلزامات .

٢ – أبو الحسن الأشعرى . مقالات الإسلاميين ، واختلافات المصلين ، وهذا كتاب أيضا من أقدم كتب العقائد . كتبه شيخ المذهب الأشعرى . ولم يكتبه فى صورة جدلية . كبقية كتبه الأخرى . وهذا ما دعانى إلى الشك فى أنه الصورة الحقيقية للكتاب . وأيا كان الأمر – فالكتاب يمدنا بمعلومات ممتازة عن فرق الشيعة ونشأتها . بل تنقل إلينا هذه المعلومات بأمانة .

٣ – البغدادى – أبو منصور عبد القاهر (المتوفى – ٤٢٩هـ = ١٠٣٧ م) وهو من أهم الكتب فى معرفة عقائد الشيعة . ولكن البغدادى كثيراً ما يخرج عن جادة التاريخ ، وينقل إلينا الإلزامات

فقط غير أن النقد الداخلى للنصوص يبين حقيقتها . وقد استند الإسفراييني فى التبصير على كتاب البغدادى .

٤ – ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م الفصل فى الملل والأهواء والنحل . نقل إلينا ابن حزم – وهو فيلسوف المظهر الظاهرى – كثيراً من عقائد الشيعة ، وقدم لنا نظرات نقدية هامة . ولكن يقلل من أهمية كتابه كمصدر تاريخى – مزاجه الحاد وهجومه الدائم على المخالفين .

٥ – الشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨هـ – ١١٥٣ م) الملل والنحل . يكاد يكون أهم كتاب للفرق الإسلامية ، ولا يقلل من قيمة كتابه – كما ذكر فخر الدين الرازى – أنه نقل عن البغدادى – والبغدادى فى نظر الرازى لا ينقل بأمانة . إن الشهرستانى ناقد وفيلسوف بالإضافة إلى شهرته كمؤرخ للفلسفة الإسلامية . ولا شك أنه استند على البغدادى ولكن هناك فصولا كاملة تدل على أصالته . ولا يزال كتاب الشهرستانى . « الملل والنحل » فى حاجة إلى نشرة علمية ضخمة تحدد المصادر والمآخذ التى أخذ عنها . ومن الفصول الرائعة فى كتابه – ما كتبه عن الشيعة عامة والباطنية خاصة . وقد ترك لنا نصوصا – نقلها عن الفارسية من كتب الحسن الصباح . كما أنه من القلائل الذين كتبوا بإفاضة عن أحمد الكيال .

٦ – الرازى ، فخر الدين : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وهو كتاب صغير ولكنه قيم . يكاد يكون ثبتا دقيقا بأسماء الفرق وأصحابه ثم يقدم لنا أحيانا نظرات فاحصة .

هذه صورة من كتب العقائد الإسلامية . وقد ذكرت غيرها فى هوامش الكتاب ؛ ولا حاجة لتكرارها هنا . غير أن هناك كتاباً هاما يكاد يكون فى التاريخ . ولكن يحتوى جزء كامل منه على تاريخ العقائد والفلسفة . وهو كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن المطهر المقدسى (عاش حوالى منتصف القرن الرابع) ، وقد وصل الكتاب مطبوعا إلى أيدينا حديثاً . والكتاب ممتع فى جميع أجزائه . ويحتاج الجزء الخاص بالعقائد إلى دراسة مقارنة مع غيره من كتب العقائد وتاريخها . وقد استفدت منه استفادات قيمة فى هذا الكتاب .

وهناك كتب تاريخية كثيرة بعضها كتب من وجهة نظر السنة – ومن أهمها تاريخ الأمم والملوك للطبرى – (والمتوفى سنة ٣١٠ = ٩٢٢ م) وبعضها كتب من وجهة نظر الشيعة مثل تاريخ اليعقوبى – لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ ٩٥٧ م صاحب مروج الذهب والتنبيه والإشراف ثم الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) كل هذه الكتب – كانت ذات أهمية كبرى فى تقديم معلومات قيمة عن الشيعة ، وبخاصة الشيعة الاثنى

عشرية . ويتميز اليعقوبى بالاختصار والتمكن – كما يتميز المسعودى بالإطالة وعيبه الاستطراد .

كما أن كتب البيرونى وهو عالم ناقد فاحص سنى المذهب (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ= ١٠٤٨م) مصدر ممتاز لكثير من الأخبار عن الشيعة . فأما كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة ، ففيه نظرات نقدية ممتازة عن الشيعة الباطنية ، ومقارنة بعض كلام أبى يعقوب السجزى بالتناسخ عند الهنود . أما الآثار الباقية » فيحوى معلومات ممتازة عن القرامطة ، وعن الغنوصيات التى دخلت العالم الإسلامى ، كما أنه أمدنى أيضاً بالصيغ الكيالة التى استخدمها أحمد الكيال .

وعالم آخر سلفى – وهوابن تيمية ،يعتبر مصدرا عارما لعقائد الشيعة . وكتابه « منهاج السنة » وثيقة فريدة تنقل إلينا صورا متعددة من عقائدهم . وميزة ابن تيمية أنه ينقل لنا نقلا صادقاما يناقشه بعد ذلك فى حدة وقسوة . وما يفسد كتابات ابن تيمية هو حقده الملتهب على المخالفين لعقيدته السلفية . وكمجسم نراه هينا لينا تجاه هشام بن الحكم .

الكتب الشيعية

١ – أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ= ٩٢٢ م) فرق الشيعة . وهو من أهم كتب العقائد الشيعية . وبه أدق المعلومات عن نشأة التشيع وتطوره وفرقه ؛ تكلم عن أنواع التشيع . اثنى عشرى أو عباسى أو حنفى أو أبى هاشمى . ثم قدم لنا معلومات وثيقة عن الغلاة ، ثم تحدث عن أوائل الحركة الإسماعيلية .

٢ – أبو خلف الأشعرى القمى :كتاب المقالات والفرق . (توفى القمى عام ٣٠٠ أى قبل وفاة النوبختى) ولكن أثبت الدكتور محمد جواد مشكور فى نشرته الرائعة لكتاب الأشعرى القمى أن الكتاب الأخير يستند على كتاب النوبختى . ولكن به زيادات وإضافات عن الكتاب الأخير وقد استند عليه كثيراً .

٣ – ابن المطهر الحلى (المتوفى سنة ٧٢٦هـ) . كتاب منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة . كتبه علامة الشيعة الكبير . وفيه أخبار هامة عن المذهب ومهاجمة لأعداء الشيعة الأثنى عشرية . وقد رد عليه عالم السلف الكبير تقى الدين بن تيمية بكتابه المشهور « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية . وابن تيمية بجانب مذهبه الكلامى ونظراته الفلسفية ، بحيث يعتبر فيلسوف المذهب السلفى

المتأخر ، هو أكثر مؤرخي الفلسفة الإسلامية دقة ، يورد النقول كما هي –والآراء كما وردت ثم يناقشها مناقشة من وجهة نظره . وفي الحق أن كتاب منهاج الكرامة وكتاب منهاج السنة مصدران من أهم المصادر لدراسة المذهب الشيعي وآراء الإمامية وأهل السنة في كثير من عقائدهم .

٣ – رجال الكشي : أو طبقات الكشي – من رجال القرن الرابع الهجري (طبعة كربلاء – نشرة السيد أحمد الحسيني) من أقدم كتاب طبقات الرجال عند الشيعة . وبه فصول قيمة وبخاصة عن المختار بن أبي عبيد وهشام بن الحكم وأبي الخطاب الأسدي ويحتاج هذا الكتاب إلى دراسة خاصة .

٤ – الشيخ المفيد محمد بن النعمان المتوفى عام (٤١٣ هـ) : أوائل المقالات في المذاهب والمختارات وهو من أهم كتاب الأئمة المجتهدين في معرفة عقائد الاثني عشرية . . وله أيضا شرح عقائد الصدوق (في مجلد واحد) .

كتب الإسماعيلية

كان استناد الباحثين في معرفة كتب الإسماعيلية إلى ما كتبه أعداء الإسماعيلية فقط ، ومن أهم الأمثلة الواضحة على مقدار الفهم الخاطئ للإسماعيلية أن عدداً من الباحثين – استندوا لمدة طويلة على آراء ابن رزام في معرفة حقيقة الإسماعيلية كما فعل ابن النديم صاحب الفهرست ، كما عرفت آراء الإسماعيلية عن نقل عدو لهم هو « أخو محسن » ونقل أيضا بعض آرائهم النويري في نهاية الأرب ولكن مالبث أن نشر عدد من كتب الإسماعيلية ، أنارت لنا الطريق إلى أكبر حد في معرفة آرائهم وأذكر على سبيل المثال .

١ – نشرات الأستاذ عارف تامر : وأهمها : خمس رسائل إسماعيلية لمفكرين إسماعيليين . ثلاث رسائل إسماعيلية . والأستاذ عارف تامر إسماعيلي متعصب للإسماعيلية . ولا يميز بين الإسماعيلية الأولى والإسماعيلية المتأخرة بينما هناك فروق جوهرية بين الفرقتين .

٢ – نشرة شتّرو تمان لأربعة كتب إسماعيلية – وهي من أهم الكتب في معرفة نظرية الإمامة المستقرة والمستودعة .

٣ – نشرات الأستاذ إيفانوف الكثيرة – وكتبه المتعددة عن المذهب الإسماعيلي . وقد قدم إيفانوف خدمات جليلة في توضيح هذا المذهب وتطوره مع حماس ظاهر له أضاع كثيراً من قيمة هذه الأبحاث العلمية .

٤ – نشرات المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقد قدم لنا عدداً كبيراً من مخطوطات الإسماعيلية فى نشرات علمية . وقد أجهد الدكتور محمد كامل حسين نفسه فى سبيل توضيح عناصر هذا المذهب . غير أننى ألاحظ أنه – فيما خلا كتب الكرمانى التى نشرها الدكتور محمد كامل حسين فإن الكتب التى قدمها لنا ليست من الكتب السرية .

٥ – الأبحاث المختلفة الفلسفية والتاريخية عن الإسماعيلية وأكبر من تصدى لهذا الموضوع الأستاذ ماسينيون . ومقالته عن القرامطة فى دائرة المعارف الإسلامية مثال واضح عن تضلع ماسينيون فى هذا النطاق . كما أن مقالته عن سلمان الفارسى لدليل واضح على أصالة الرجل فى البحث . وكذلك مقالته عن النصيرية وعن المباهلة .

غير أن أبحاث ماسينيون أبحاث كتبت من وجهة نظر خاصة . لقد سيطرت على الرجل عقيدته الكاثوليكية – فحاول أن يصور الشخصيات التى كتب عنها فى صورة هذه العقيدة . فالحلاج مسيح آخر ، وسلمان صورة غنوصية مسيحية فى العالم الإسلامى ، وغاية الإسماعيلية هى إعادة مجد بيت المقدس . والدروز مسيحيون . وهكذا يسير ماسينيون وراء تدعيم هذه الفكرة .

وكما سبق أن قلت فى صلب الكتاب – إنه لكى نتفهم عقائد الشيعة ينبغى دراسة تاريخ العراق السياسى والاقتصادى وأهم مصدر فى هذا الموضوع كتابات سيد مؤرخى العرب المعاصرين الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى – وبخاصة فى كتابه دراسات فى العصور العباسية المتأخرة والحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى .

ثم نجد عالما آخر يكتب كتابا هاما عن « أصول الإسماعيلية » وهو الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى والأوسط فى جامعة لندن . والكتاب قطعة ذكية من البحث العلمى أو محاولة لبقة لإلقاء الضوء على نسب الفاطميين . ولكن فكرته ليست حلا نهائيا لمشكلة الفاطميين . وقد استند عليه استناداً كاملا الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما « عبيدالله المهدى » غير أن أبحاث لويس يسودها اتجاهه المذهبى . فيرى أن الإسماعيلية تأثرت خطى العيسوية الأصفهانية اليهودية فى مشكلة التأويل . ولكن كان للويس فضل الكشف عن عدد من المخطوطات الهامة التى استند عليها فى بحثه مثل قسم من تاريخ مفقود لثابت بن سنان الصابى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٤ م . وقد أمده بمعلومات محايدة عن الإسماعيلية . كما استفاد أيضا من كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار (المتوفى سنة ٤١٥ أو ٤١٦ هـ = ١٠٢٤ أو ١٠٢٥ م) ، وهذا المخطوط يعد للنشر الآن فى القاهرة .

غير أن خطأ لويس أنه استند على مخطوطات درزية – كرسالة حمزة «الرسالة المستقيمة» وغيرها من رسائل بشأن القرامطة والفاطمية» وحاول أن يحل مشكلة اسم القرامطة بناء على معلومات فى هذه المخطوطات . كما وجه أنظار الباحثين إلى مجموعة من المخطوطات الدرزية فى مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكنه نسى أن كتب الدروز كتب أسطورية لا تقدم لنا أبداً تاريخاً وإنما أساطير وعقائد غنوصية وأسراراً خفية .

٦ – نشرات الدكتور الهمدانى . وقد قدم هذا العالم خدمات جليلة لفهم المذهب الإسماعيلى بنشراته لعدد من المخطوطات الإسماعيلية . وكذلك بما كتبه من مقالات هامة عن الإسماعيلية .

٧ – الدكتور كامل مصطفى الشيبى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد : فهو كتاب «الصلة بين التصوف والتشيع» وقد نشر الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب .

وقد حاول الدكتور الشيبى أن يكشف عن الصلات بين التصوف والتشيع بعمق نادر المثال وأن يقيم مقارنات بين أقوال الصوفية ، ثم أن يصل بين النظريات الشيعية والنظريات الصوفية . وعاونه على دراسته ثقافته الشيعية الواسعة ثم دراساته الفلسفية فى مصر وفى كمبردج .

٨ – ثم هناك كتابان آخران : أولهما «جعفر الصادق رائد الشيعة والسنة» للدكتور عبد القادر محمود – وهو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة – فرع الخرطوم . وقد طبع الكتاب . والكتاب كان رسالة جامعية تحت إشراف فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . والبحث يتناول الإمام جعفر الصادق من مختلف نواحيه . وثانيهما «نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية – للدكتور أحمد صبحى – وهو بحث كبير ممتاز يتناول نظرية الإمامة الاثنى عشرية من جميع نواحيها بنزاهة وإخلاص . وقد نشرته دار المعارف بطبعه .

٩ – الأستاذ هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية (الترجمة العربية عام ١٩٦٦) . ولقد خلف الأستاذ كورباب ماسينيون ، فى السوريون وتشبه محاولته لتأريخ الشيعة ، محاولة ماسينيون لتأريخ الحلاج . وهو متأثر باتجاهه بلا شك . مع تطبيق مذهب الظواهر . للفيلسوف هسرل فى مختلف مباحث الكتاب ، وبخاصة الجزء الخاص بالتشيع . وهو جوهر الكتاب . وفى الكتاب لمحات جميلة . ولكن هل هى تعبر فعلا عن تاريخ التشيع ، أم هى آراء المتأخرين من كتاب الشيعة من أمثال حيدر أملى – وغيره ، حاول بنظرة ظواهرية أن يفسر لها نشأة الفكر الفلسفى لدى الشيعة . إن الملاحظات القيمة التى

أوردها الإمام موسى الصدر فى مقدمته ، ثم الكثير من ملاحظات الأستاذين المترجمين ، تثبت تماماً أن كوربان كان شيعيًّا أكثر من الشيعة . كان يعانى تجر هو الذاتية خلال ماكتبه الشيعة المتأخرون عن الأئمة ، أو ما حملوه الأئمة من أقوال وآثار لم تصدر عنهم أبداً . وما أبعد هذا عن تاريخ الفلسفة تاريخاً صحيحاً .

تم الجزء الثانى من الكتاب

obeikandl.com